#49

From the Library of

CHARLES DICKENS,

June, 1870.



آمال تفوق التوقعات

تشارلز ديكنز

ترجمة:

أحمد يعقوب



آمال تفوق التوقعات
تأليف/ تشارلز ديكنز
ترجمة/ أحمد يعقوب
لوحة الغلاف / إقبال عبيد

الطبعة الأولى 1438هـ - 2017م
تدمك: ISBN 978-9948-23-563-7
المقاس: 14X23,5 كتاب من القطع الوسط عدد الصفحات (160 صفحة)
تمت الموافقة عليه من قبل المجلس الوطني للإعلام رقم: 194018





هاتف: 00971-2-4460777
صندوق البريد: 130777
البريد الإلكتروني: publishing@hamaleel.ae
الموقع الإلكتروني: www.hamaleel.ae





مؤسسة هماليل للإعلام

مؤسسة إعلامية تُعنى بالأدب والفكر والثقافة والموروث.

مقدمة

لقد اختلفت المسميات والعناوين كثيراً، لكن يجد مترجم هذا العمل أنسب عنوان لم يكن في الحسبان هو آمال تفوق التوقعات إن في هذه الرواية حيوات عديدة وتوقعات كثيرة وآمالاً لا نهائية. إن هذا العمل الذي بين يديك سيأخذك لمشاهدة صور ومشاهد خيالية فوق ما تقرؤه، هذا هو سر ديكينز أنه يصنع السينما في رأسك ويترك لك خيار رسم الشخصيات حيث تريد. لا تترك العمل إلا وأنت تنظر إلى النهاية.

الفصل الاول
السجين الهارب

والدي من عائلة فيليب، واسمي أنا فيليب، فلم يستطع لساني الصغير أن ينطق من الاسمين أكثر من بيب. وهكذا دعوت نفسي بيب، وأصبح الجميع ينادونني بيب. وبما أنني فقدت والدي منذ طفولتي، فقد نشأت إلى جانب شقيقتي السيدة جو غارجري التي تزوجت الحداد.

كانت بلدتنا مليئة بالمستنقعات إلى جانب النهر على بعد عشرين ميلاً من البحر. وتعود ذاكرتي الأولى إلى بعد ظهر يوم بارد رطب يزحف نحو السماء. في ذلك الوقت، وجدت بلا ريب أن المكان المكسو بالأعشاب الغليظة، هو فناء الكنيسة، وأن والدي ووالدتي وإخوتي الخمسة دفنوا هناك، وأن البرية الممتدة ما وراء الفناء هي المستنقعات، والخط المنخفض الكئيب هو النهر؛ والمنطقة النائية حيث تنطلق الرياح هي البحر، وأن الفتى الصغير الذي راح يخشى كل ذلك وبدأ بالبكاء هو بيب.

صاح صوت رهيب: «توقف عن الضجيج». «وظهر رجل من بين القبور». اهدأ أيها الشيطان الصغير وإلا قطعت حنجرتك».

كان رجلاً مخيفاً، يرتدي ثياباً رمادية قاتمة وتحيط بساقه أغلال ضخمة. كان من دون قبعة، ينتحل حذاءً بالياً، وقد ربط رأسه بخرقة قماش رثة راح يعرج ويرتعش وتصطك أسنانه في فمه، بينما أمسك بذقني... رجوته خائفاً: «لا تقطع حنجرتي سيدي، أرجوك، لا تفعل ذلك سيدي».

فقال الرجل:«قل لنا ما اسمك، بسرعة».

«بيب، سيدي».

فقال الرجل وهو يحدق فيَّ: «مرة ثانية، تكلم».

«بيب، بيب سيدي».

قال: «أين تسكن؟ هيا أشر إلى حيث تسكن».

فأشرت إلى حيث تقع قريتنا، على بعد ميل أو أكثر من الكنيسة.

وبعدما حدق بي الرجل لدقيقة، قلبني رأساً على عقب وأفرغ جيوبي. لم يكن بداخلها شيء سوى كسرة من الخبز. تناولها وراح يلتهمها بشراهة. ثم قال وهو يلعق شفتيه: «أيها الكلب الصغير، لديك وجنتان ممتلئتان».

أعتقد أنهما كانتا ممتلئتين، مع أنني إذّاك كنت أبدو أصغر حجماً من سني، وهزيل القوة.

سألني عن مكان والدي ووالدتي، وعندما أشرت إلى قبريهما، سألني مع من أسكن، فأخبرته أنني مع أختي زوجة الحداد جو غارجري.

عندما سمع كلمة حداد، نظر إلى ساقه ثم راح ينظر إليَّ. فأمسك بي بذراعيه وأوعز إليَّ أن أحضر له في الصباح الباكر مبرداً وبعض

الطعام، وإلا فسيقتلع كبدي وقلبي. لم أستطع التفوه بكلمة، فتابع يقول: «لست بمفردي كما تظن، هناك شاب مختبئ معي، وأنا ملاك قران معه. إن ذلك الشاب يستمع إلى كلماتي، إن له طريقة خاصة به للحصول على الأولاد وعلى أكبادهم وقلوبهم. وعبثاً يحاول الفتى الاختباء من هذا الشاب.

وعدته بأن أحضر له المبرد وما أستطيع إحضاره من فتات الخبز، وتمنيت له ليلة سعيدة.

عرج نحو جدار الكنيسة المنخفض وخطا فوقه، ثم التفت لينظر إليَّ. حين رأيته ينظر إليَّ، توجهت صوب المنزل وانطلقت بأقصى سرعتي...

الفصل الثاني
أصبحت لصاً

شقيقتي السيدة جو غارجري تكبرني بعشرين عاماً، وهي طويلة القامة، نحيلة الجسم، بسيطة المحيّا. وقد كونت لنفسها مقاماً رفيعاً بين الجيران لأنها تولت تنشئتي على يديها. وبينما كنت أرغب في اكتشاف مدلول هذا التعبير، علماً بأن لديها يداً قاسية ثقيلة تلقي بها عادة عليّ وعلى زوجها، فقد افترضت أنني نشأت مع جو غارجري على اليد.

كان جو رجلاً لطيفاً. شعره بني فاتح وعيناه زرقاوان. كان رجلاً ليناً، طلق المحيّا، بسيطاً، وقريباً إلى القلب.

حين أسرعت إلى البيت عائداً من باحة الكنيسة، كان دكان جو المحاذي لبيتنا مقفلاً. وكان جو يجلس في المطبخ بمفرده.

وبما أنني وجو كنا رفيقين في التعاسة، فقد أفضى إليّ أن شقيقتي خرجت مرات عدة تبحث عني وهي تحمل عصا بيدها. وما لبث أن رآها قادمة، حتى نصحني بأن أختبئ خلف الباب، فعملت

بنصيحته على الفور.

دفعت شقيقتي بالباب على مصراعيه، وحين وجدت ما يعقبه من الخلف، أدركت السبب بسرعة، فانهالت عليّ بالعصا، وانتهت بإلقائي على جو الذي كان يسره الإمساك بي في مطلق الأحوال، فوضعني في زاوية المدفأة وأحاطني بساقه الضخمة.

قالت السيدة جو وهي تضرب الأرض بساقها: «أين كنت أيها القرد الصغير؟ أخبرني بسرعة أين كنت لتقلقني وتُهلِكُني بالبحث عنك؟ أو اقتلعتك من هذه الزاوية حتى لو كنت خمسين بيب وهو خمسمئة جو غارجري».

فقلت وأنا أبكي وأحك جسدي: «ذهبت إلى فناء الكنيسة فقط».

فردت قائلة: «فناء الكنيسة! لولاي لكنت في فناء الكنيسة منذ زمن بعيد، ولبقيت هناك إلى الأبد».

انكبت تجهز الشاي؛ فمسحت رغيفاً بالزبدة وقطعت قطعة سميكة ما لبثت أن قطعتها ثانية نصفين، نال جو أحدهما وأنا نلْتُ النصف الآخر. رغم أنني كنت جائعاً، لكنني لم أجرؤ على أكل قطعتي، إذ يجب أن أحتفظ بشيء احتياطي لصاحبي المخيف وحليفه الذي كان بدوره أكثر رعباً منه. انتظرت لحظة لم يكن جو ينظر إلي، وخبأت قطعة الخبز المدهونة بالزبدة تحت سروالي.

اندهش جو حين رأى أن قطعتي اختفت فجأة، وظن أنني ابتلعتها دفعة واحدة. وكذلك اعتقدت شقيقتي التي أصرت على إعطائي دواءً مقيتاً اسمه: (ماء القار).

أما الفكرة الآثمة بسرقة السيدة جو، إضافة إلى إبقاء يدي على قطعة الخبز والزبدة أثناء الجلوس والسير، فقد ذهبت بعقلي. وسررت إذ تدبرت الانسلال وخبأتها في غرفتي.

عند سماع طلقات نارية، سألت جو عن السبب فقال: «لقد فر مجرم آخر. وكان قد فر واحد آخر في الليلة الماضية من سفينة الاعتقال، وأطلقوا النار تحذيراً. ويبدو الآن أنهم يطلقونها تحذيراً من آخر».

رحت أطرح الكثير من الأسئلة عن المجرمين وعن سفن الاعتقال حتى ضاقت بي شقيقتي ذرعاً، فأخبرتني أن الناس يودعون في سفن الاعتقال لأنهم يقتلون ويزوِّرون ويسرقون، وأنهم يبدؤون دائماً بطرح الأسئلة.

وبينما كنت أصعد إلى غرفة نومي في الظلام، بقيت أفكر في كلماتها، والرعب يملأ قلبي. فمن الواضح أنني في الطريق إلى سفينة الاعتقال لأنني بدأت بطرح الأسئلة، وكنت أنوي سرقة السيدة جو.

أمضيت ليلة رهيبة مليئة بالأحلام المخيفة. وحالما بزغ الفجر، تسللت إلى غرفة التموين التي كانت تغص بالأغراض والمؤن بسبب موسم الميلاد. سرقت بعض الخبز وقطعة من الجبن قاسية، ونحو نصف جرة من اللحم المفروم، وبعض الشراب من قنينة حجرية وعظمة مكسوة بقليل من اللحم، وفطيرة مستديرة جميلة ظننت أنها لم تكن قيد الاستهلاك السريع، وإنه لن يتم البحث عنها إلا بعد فترة من الزمن.

وبعد أن تناولت مبرداً كذلك من بين عدة جو، هرعت إلى المستنقعات المكسوة بالضباب.

الفصل الثالث
الرجل الآخر

كان الصباح بارداً جداً وشديد الرطوبة. وكان الضباب من الكثافة في المستنقعات حتى بدا وكأن كل شيء يتراكض نحوي.

كنت أتقدم نحو النهر، لكن مهما أسرعت فلن أستطيع تدفئة قدمي. كنت أعرف طريقي نحو الحصن، لكنني وسط ذلك الضباب الكثيف، اكتشفت أنني سرت بعيداً جداً إلى اليمين، وعليَّ بالتالي العودة إلى خط النهر. ولم أكد أعبر حفرة حتى وجدت الرجل جالساً أمامي. كان ظهره مواجهاً إليَّ، وقد ثنى ذراعيه، بينما رأسه يطأطئ بالنوم.

ظننت أنه سيكون أكثر سروراً لو أتيته بإفطاره بهذا الأسلوب غير المنتظر، فتقدمت إليه ومسسته على كتفه.

فقفز بسرعة، لكنه لم يكن الرجل ذاته، بل كان رجلاً آخر.

على أن هذا الرجل كان يرتدي ملابس رمادية كذلك وتحيط بساقيه أغلال حديدية، كما كان يعرج ويرتعش، ويشبه الرجل الآخر

تماماً، باستثناء الفرق في الوجه. شتمني ووجه إليّ ضربة أخطأتني. وما لبث أن توارى في الضباب.

قلت: «إنه الشاب». وأنا أشعر بقلبي يقفز من مكانه لدى إدراكي ذلك. كدت أشعر بألم في كبدي أيضاً لو علمت أين هو.

وسرعان ما بلغت الحصن حيث كان الرجل الصحيح في انتظاري. كان يعاني برداً قارساً والجوع الشديد يظهر في عينيه. وما كدت أفتح حزمتي وأخرج ما في جيوبي حتى بدأ يأكل بسرعة فظيعة، ثم توقف ليتناول بعض الشراب. كان يرتجف وهو يبتلع اللحم المفروم والخبز والجبن والفطيرة، كلها دفعة واحدة، ثم يحدق بنظرات ملؤها الشك، وغالباً ما يتوقف ليدقق السمع. ثم قال فجأة: «هل أنت حقاً شيطان صغير مخادع؟ هل أحضرت معك أحداً»؟

«كلا سيدي، كلا».

«ولا طلبت من أحد أن يتبعك»؟

«كلا».

«حسناً، إني أصدقك. لكن لابد أنك كلب صغير عنيف إن استطعت في سنك هذه أن تسهم في مطاردة رجل مسكين مثلي».

وبينما جلس يأكل الفطيرة بشراهة واختلاس، قلت له إنني أخشى ألا يترك شيئاً للشاب. فأخبرني بما يشبه الضحك الغليظ أن الشاب لا يريد أي طعام. فقلت إنني أعتقد أنه ربما يريد طعاماً، وأنني رأيته لتوي يرتدي مثله، وتحيط بساقه أغلال حديدية، ثم أشرت إلى حيث التقيت به. فسأل بانفعال إن كانت هناك آثار كدمة على خده الأيسر، وحين أجبته بنعم، أمرني بأن أرشده إليه. وبعد أن أخذ المبرد مني، جلس على العشب الرطب وأخذ يبرد أغلاله كالمجنون. وخشية أن أطيل البقاء خارج المنزل، تسللت بعيداً وتركته يعمل بجهد في معالجة أغلاله...

الفصل الرابع
العم بامبلتشوك

كنت أتوقع أن أجد شرطياً ينتظرني في المطبخ لإلقاء القبض عليَّ. لكن لم يكن هناك شرطي، ولم يتم اكتشاف السرقة بعد...

كانت السيدة جو منهمكة في تجهيز المنزل لاحتفال النهار. إذ ينبغي علينا تحضير عشاء فاخر يتكون من فخذ عجل مع الخضار وزوج من الطير المحشي المحمر. سبق أن تم تحضير فطيرة محشوة صباح البارحة، ووضعت الحلوى على النار. في غضون ذلك، علقت السيدة جو ستائر بيضاء نظيفة، ورفعت الأغطية التي لم تكن لترفع إلا في هذه المناسبة من غرفة الجلوس الصغيرة عبر الممر. كانت السيدة جو ربة منزل نظيفة للغاية، لكن طريقتها في النظافة كانت من الغرابة حتى استحالت أكثر إرهاقاً من القذارة نفسها.

كان السيد ووبسيل، الكاهن في الكنيسة، مدعواً للعشاء معنا، كذلك السيد هابل، صانع العجلات، والسيدة هابل؛ والعم بامبلتشوك، (عم جو، لكن السيدة جو كانت تناديه عمها). وهو

تاجر ذرة ميسور الحال في البلدة القريبة، يقود عربته الخفيفة بنفسه، كان موعد الغداء في الواحدة والنصف، وعندما رجعت مع جو من الكنيسة إلى البيت، وجدنا المائدة جاهزة، والسيدة جو قد ارتدت ملابسها. وطعام الغداء قيد الإعداد، وقد فتح الباب الأمامي لدخول الضيوف. كان كل شيء في غاية الروعة والبهاء. وحتى ذلك الوقت، لم تصدر كلمة بشأن السرقة. وها قد حان الوقت دون أن يحمل معه ما يخفف من مشاعر قلقي، ودخل الضيوف.

قال العم بامبلتشوك، وهو رجل بطيء في متوسط العمر يتنفس بصعوبة، فمه كالسمكة وعيناه كئيبتان وشعره رملي اللون منتصب في رأسه: «أحضرت لك، كهدية للموسم أحضرت لك سيدتي زجاجة من نبيذ الكرز، كما أحضرت لك سيدتي زجاجة من نبيذ البورت». في كل يوم عيد ميلاد، كان يتقدم بالكلمات نفسها، ويحمل كلتا الزجاجتين كأثقال للتدريب. وفي كل عيد ميلاد، كانت السيدة جو تجيب بنفس ما أجابت الآن: «أوه، عمي بامبلتشوك، هذا لطف منك».!

وكان في كل عيد ميلاد يجيب مثلما أجاب الآن: «هذا لا يتعدى مقدار فضائلك. والآن، هل أنتم جميعاً على ما يرام؟ وكيف حال سيكسبنوورث؟ «وكان يقصدني بذلك».

في مثل هذه المناسبات كنا نتناول الطعام في المطبخ، ثم نعود لغرفة الجلوس لنتناول المكسرات والبرتقال والتفاح. وسط هذه المجموعة الطيبة، لابد أنني شعرت بنفسي، وإن لم أسرق غرفة المؤونة، في وضع خاطئ. ليس لأنني كنت محشوراً عند زاوية غطاء الطاولة الحادة، حيث تبلغ الطاولة مستوى صدري وكوع بامبلتشوك في عيني، ولا لأنه لم يسمح لي بالحديث (فأنا لم

أكن أرغب في الكلام)، أو لأن نصيبي من الطعام كان عظام الطير وقطع اللحم الهزيلة. كلا، لم أكن أكترث بكل هذه الأمور لو أنهم تركوني وحيداً. لكنهم لم يكن ليفعلوا ذلك. بل بدا باعتقادهم أنهم سيفوّتون الفرصة لو فشلوا في توجيه الحديث نحوي من حين إلى آخر، والتركيز عليَّ.

بدأ ذلك لحظة جلوسنا إلى المائدة. إذ تلا السيد ووبسل صلاة قصيرة انتهت بالأمل بأن نكون من الشاكرين. هنا ركزت شقيقتي نظرها إليَّ وقالت بنبرة تأنيب: «هل سمعت ذلك؟ كن شكوراً».

وقال السيد بامبلتشوك: «على الأخص، كن شكوراً أيها الفتى لمن رباك على يديه».

كان موقف جو ونفوذه أضعف عند حضور الضيوف منه حين لا يكون هناك أحد. لكنه كان يساعدني دائماً ويهدئ من روعي، حين يتسنى له بطريقته الخاصة. وكان يفعل ذلك عادة في وقت الغداء حيث يقدم لي المرق إذا توافر. وبما أن هناك الكثير من المرق اليوم، فقد سكب في صحني. إزاء تلك الملاحظة، نحو نصف باينت.

قالت السيدة هابل متعاطفة مع شقيقتي: «كان مصدر إزعاج لك، سيدتي؟».

فردت شقيقتي قائلة: «إزعاج؟ إزعاج؟ «ثم تطرقت إلى بيان رهيب بجميع العلل التي سببتها، وحالات الأرق التي اقترفتها، وجميع الأمكنة المرتفعة، التي سقطت منها، وجميع الأماكن المنخفضة التي سقطت فيها، وكافة الجروح التي سببتها لنفسي، وجميع الأوقات التي تمَنت فيها أن أكون في قبري، لكنني رفضت بعناد الذهاب إليه.

قالت شقيقتي: «تناول بعض الشراب يا عمي».

رباه! لقد حل الأمر أخيراً! فسيجد الشراب خفيفاً ويقول إنه كذلك. شعرت بالضياع، أمسكت برجل الطاولة تحت الغطاء بكلتا يديَّ وانتظرت مصيري.

ذهبت شقيقتي وأحضرت القنينة الحجرية، وعادت بها وصبت له الشراب، دون أن يتناول منه أحد غيره. تناول الرجل المسكين كوبه ونظر إليه خلال الضوء، ثم وضعه ثانية، مما زاد في تعاستي. إبّان ذلك، كانت السيدة جو وزوجها السيد جو منهمكين في إخلاء المائدة لإحضار الفطيرة والحلوى.

لم أستطع تحويل نظري عنه. بل بقيت ممسكاً برجل الطاولة بإحكام بيديّ ورجليّ، ورأيت الرجل التعيس يمسك بكوبه ويبتسم، ثم يرجع برأسه للوراء ليشرب الكوب بأكمله. في الحال، حلّ بالحاضرين رعب بالغ حين قفز الرجل واقفاً واستدار مرات عدة وهو يسعل ويشهق على نحو رهيب، ثم اندفع نحو الباب وبدا من خلف النافذة وهو يسعل ويكشّر وجهه بشكل شنيع كأنه فقد عقله.

بقيت ممسكاً بإحكام، بينما السيدة جو وجو هرعا إليه. لم أدر كيف فعلت ذلك، لكن لم يساورني شك بأنني قتلته بشكل أو بآخر. في مثل هذه الحال الرهيبة التي تملكتني، فقد ارتحت حين أعادوه، وبعدما جال بنظره على الحاضرين وكأنهم لا يوافقونه الرأي، غاص في مقعده وهو يلهث بشدة قائلاً ببطء: «القار».

لقد ملأت القنينة من إبريق ماء القار. وكنت أعلم أن حالته ستسوء تدريجياً.

فصاحت شقيقتي: «قار! كيف؟ كيف يمكن للقار أن يصل إلى هناك».؟

طلب العم بامبلتشوك بعض المشروب الحاد مع الماء. وكان على شقيقتي، التي راحت تفكر بقلق، أن تنهمك بإحضار الشراب والماء الساخن والسكر وقشر البرتقال ومزجها معاً. لقد نجوت بجلدي، مؤقتاً على الأقل. فقالت شقيقتي تخاطب ضيوفها بألطف لهجة لديها: «لا بد أن تتذوقوا، في النهاية، هدية العم بامبلتشوك اللذيذة البهيجة».

هل لابد لهم من ذلك؟ ليتهم لا يفعلون ذلك!

قالت شقيقتي وهي تنهض: «لابد أن تعلموا أنها فطيرة، فطيرة لذيذة».

تمتم الحاضرون عبارات المجاملة، وذهبت شقيقتي لإحضارها، فسمعت خطواتها باتجاه غرفة المؤونة. ثم رأيت السيد بامبلتشوك يوازن سكينته بيده، فشعرت بأنني لن أستطيع التحمل أكثر من ذلك، وأن عليٍّ الهرب. فتركت رجل الطاولة وأسرعت للنجاة بنفسي.

لم أكد أبتعد أكثر من الباب حتى اصطدمت بمجموعة جنود مزودة بالبنادق، وقد أمسك أحدهم أصفاداً فوجهها نحوي وقال: «ها أنت هنا، انظر جيداً، وتعال».!

الفصل الخامس
المطاردة

سبّب وصول الجنود قيام الضيوف عن المائدة بارتباك، وحمل السيدة جو، العائدة إلى المطبخ خالية اليدين، على الوقوف والتحديق متسائلة: «إلهي! ما الذي حدث للفطيرة».؟

فقال الرقيب: «عذراً أيها السيدات والسادة، إنني أقوم بمطاردة باسم الملك، وأريد الحداد».

وأوضح الرقيب من ثم إن قفل أحد الأصفاد قد تعطل، وحيث إنهم بحاجة إليها على الفور، فقد طلب إلى الحداد التدقيق فيها. حين أخبره جو أن الأمر يستغرق نحو ساعتين، طلب إليه الرقيب المباشرة بالعمل فوراً، وأوعز إلى رجاله لمساعدته.

كنت في حال من الخوف الشديد. لكن حين أدركت أن القيود لم تكن لي، وأن وصول الجنود أنسى شقيقتي أمر الفطيرة، استجمعت بعضاً من أفكاري المشتتة.

سأل السيد ووبسل الرقيب إذا ما كانوا يطاردون أحد المجرمين،

فأجابه: «نعم، اثنين. ومعلوم أنهما لا يزالان في المستنقعات، ولن يحاولا الخروج منها قبل الظلام. فهل شاهد أحدكم أي أثر لهما؟».

الجميع، باستثنائي، نفوا ذلك بشيء من الثقة. ولم يفكر أحد فيَّ، خلع جو معطفه وصدرته وارتدى وزرته الجلدية، ثم توجه إلى دكانه. أشعل أحد الجنود النار وأخذ الثاني ينفخ بالمنفاخ، بينما تحلق الباقون حول النار التي ما لبثت أن تأججت. ثم بدأ جو يعمل بالطرق، ووقفنا جميعاً نراقبه.

في النهاية أنجز جو المهمة، وتوقف الطرق والرنين. وبينما كان جو يرتدي معطفه، اقترح أن يذهب بعضنا مع الجنود لمشاهدة نتيجة المطاردة. فقال السيد ووبسل إنه سيذهب لو فعل جو.

ووافقت السيدة جو، بدافع من الفضول لتعرف ما سيحدث وما سينتهي إليه الأمر، وافقت على ذهابه، وسمحت لي بمرافقته.

لم ينضم إلينا أحد من القرية، فالطقس كان بارداً ينذر بالمطر، والطريق مظلم والليل بدأ يزحف.

أشعل الناس المواقد في بيوتهم وقبعوا أمامها. هطل المطر البارد علينا عند خروجنا من ساحة الكنيسة متجهين نحو المستنقعات، فحملني جو على ظهره.

اتجه الجنود نحو الحصن القديم، وكنا نسير وراءهم على بعد مسافة قصيرة حين توقفنا فجأة. إذ حملت إلينا أجنحة الريح والمطر، صيحة طويلة. ثم تكرر ذلك. وبدا أن صيحتين أو أكثر تنطلقان معاً. وكلما اقتربنا من الصياح، كنا نسمع صوتاً ينادي:«جريمة»! وآخر ينادي: «مجرمون! فارون! حراس! هذه هو الطريق إلى السجناء الفارّين. «بعد ذلك بدا وكأن الصوتين يختنقان في عراك لينطلقا من جديد. حين سمع الجنود ذلك، ركضوا كالغزلان، وكذلك فعل جو.

قال الرقيب لاهثاً وهو يصارع في أسفل حفرة: «هنا يوجد الرجلان، استسلما كلاكما، اللعنة عليكما أيها الوحشين! تقدما كل على حدة».

كانت المياه تتناثر والوحل يتطاير والشتائم تنهال والضربات تسدّد حين نزل مزيد من الرجال إلى الحفرة لمساعدة الرقيب، فسحبوا المجرمين كلاً على حدة. كان كلاهما ينزفان ويلهثان ويلعنان ويكافحان، ولا غرو فقد عرفتهما مباشرة.

قال المجرم صاحبي: «تذكر»! وهو يمسح الدم عن وجهه بكميه الممزقتين، ويزيل الشعر المنتوف عن أصابعه، «لقد ألقيت القبض عليه وسلمته لكم! تذكروا ذلك».! فقال السرجنت: «ليس هذا بالأمر المهم. لن ينفعك هذا كثيراً يا صاحبي، فأنت مجرم فارّ. عليك بالأصفاد. «كان السجين الآخر مصاباً، وقد تمزقت جميع ثيابه.

وأول ما قال: «انتبه أيها الحارس! لقد حاول أن يقتلني».

فقال المجرم صاحبي بازدراء: «حاولت أن أقتله؟ حاولت ولم أفعل؟ لقد اعتقلته وها أنا أسلمه. هذا ما فعلته. إنني لم أمنعه من الهرب خارج المستنقعات وحسب، بل سحبته إلى هنا، سحبته كل هذه المسافة. إنه سيد وقور، لو سمحت، هذا الحقير. والآن فقد استعادت سفينة الاعتقال سيدها ثانية بواسطتي. وهل أقتله؟ فهو لا يستحق أن أقتله في حين أستطيع القيام بما هو أسوأ، وأعيده ثانية».

كان الرجل الآخر لا يزال يلهث: «لقد حاول لقد حاول أن يقتلني. اشهدوا اشهدوا على ذلك».

فقال المجرم الآخر للرقيب: «انظر هنا، لقد أفلتّ من سفينة الاعتقال وحدي وقمت بهجوم وحققت ذلك. كان بإمكاني كذلك الإفلات من هذه المستنقعات الباردة انظر لِقدمي: فلن تجد أثراً للحديد فيها لو لم أَكتشِف وجوده هنا. وهل أدعه يذهب طليقاً؟

وأتركه يستفيد من الوسائل التي اكتشفتها؟ أأدعه يستغلني ثانية؟ مرة أخرى؟ لا، لا، لا. لو مت في الأسفل لبقيت ممسكاً به بهذه القبضة، حيث كنت ستجده في قبضتي بالتأكيد».

قال الرقيب: «كفى هذا الجدال. أضئ تلك المشاعل».

وبينما التفت المجرم صاحبي للمرة الأولى، وقع نظره عليَّ. كنت قد نزلت عن ظهر جو حين وصلنا المكان، ولم نتحرك منذ ذلك الوقت. تطلعت إليه بتوقٍ حين نظر إلي. وحركت يدي قليلاً وأومأت برأسي. كنت أنتظر أن ينظر إليّ، لعلي أستطيع تأكيد براءتي إليه. رمقني بنظرة لم أفهمها، وقد حصل كل ذلك بلحظة. أضيئت المشاعل، وأعطى الرقيب أوامره للسير. بعد ساعة تقريباً، وصلنا إلى كوخ، خشبي، بالقرب من مَرْسًى للقوارب.

كان هناك حارس داخل الكوخ، يضع ما يشبه التقرير، ويدون أمراً في سجل لديه. اقتيد المجرم الذي أدعيه المجرم الآخر، برفقة حارسه إلى متن السفينة أولاً.

وفجأة التفت المجرم صاحبي للرقيب واعترف في وسط دهشة الجميع بأنه سرق من بيت الحداد بعض الطعام وفطيرة وبعض المشروب. عاد الزورق، وكان حارسه جاهزاً، فتبعناه إلى مكان المرسى ورأيناه يصعد إلى القارب الذي كان يجذفه مجموعة من المجرمين أمثاله.

هتف واحد من الزورق وكأنه يتحدث مع كلاب: «افسحوا الطريق». وكان يعني بذلك بِدء التجذيف. ومن خلال ضوء المشاعل، رأينا السفينة السوداء على مسافة قصيرة من وحل الشاطئ، وكأنها سفينة نوح.

وبدت السفينة لعينيّ الصغيرتين وهي محاطة ومقيدة بسلاسل ضخمة صدئة كأنها مقيدسة بالحديد كالسجناء. رأينا الزورق يمر بجانبها، ورأيناه يُقتاد إليها ثم يختفي...

الفصل السادس
الآنسة هافيشام

حين كبرت، عُهِدَ بي إلى جو للتدريب لديه، وحتى ذلك الحين كنت غريباً في دكان الحداد، وعلاوة على ذلك، فكلما احتاج الجيران إلى صبي إضافي لتخويف الطيور أو جمع الحصى أو القيام بمثل هذه المهام، كان الاختيار من نصيببي على الدوام.

خلال هذه الفترة، كنت أحضر مدرسة ليلية تديرها عمة والد السيد ووبسيل. كان لها أسلوب غريب في التعليم، إذ كان من عادتها أن تذهب للنوم من السادسة حتى السابعة كل مساء، فتترك التلاميذ يجتهدون بمراقبتها وهي تفعل ذلك.

إضافة إلى هذه المؤسسة التربوية، كان لدى العمة في الغرفة نفسها دُكَّانٌ عام صغير. لم تكن لديها فكرة عما لديها في الدكان من بضاعة، أو عن أسعار السلع في الدكان، بل هناك سجل ملوث بالزيت، تحتفظ به في أحد الأدراج وتستخدمه كدليل للأسعار، فكانت بيدي، التي تربطها قرابة بعيدة بالسيد ووبسيل؛ تستعين به

لتدبير عمليات الدكان كافة. كانت يتيمة مثلي. وكمثل حالي قد أنشئت على اليد.

وبمعونة بيدي، أكثر من معونة يد عمة والد السيد ووبسيل،مررت بكفاح مع الأحرف الأبجدية، ولقيت القلق الشديد من كل حرف. لكنني بدأت في النهاية، بطريقة عشوائية عمياء، أقرأ وأكتب وأحسب على أقل المستويات.

لم يسبق لجو أن ذهب للمدرسة في طفولته. وفي إحدى الأمسيات، بينما كنا جالسين معاً قرب النار، كتبت له رسالة على لوح حجري قدمته له. ورغم أنه لم يستطع أن يقرأ سوى اسمه، قال إنني عالم كبير، وأفصح عن إعجابه بما لدي من علم ومعرفة. ثم أخبرني عن فترة من تاريخ حياته. فقد كان والده مدمناً الشراب، وغالباً ما كان يضرب جو ووالدته، وقد هربا منه مرات عدة، وكان عليهما العمل لكسب قوتهما، لكنه كان يعيدهما إليه في كل مرة. كان على جو العمل حداداً مكان والده الكسول، وأعال والده إلى أن وافته المنية، وما لبثت والدته أن لحقت بزوجها.

ثم تعرف جو إلى شقيقتي وطلب يدها للزواج، ورجاها أن تحضرني معها إلى المنزل، قائلاً إن هناك مكاناً يتسع لي في دكانه.

وقال جو في ختام روايته: «فأنت ترى يا بيب، ها نحن الآن! فحين تساعدني في التعلم يا بيب (وأخبرك سلفاً بأنني بليد للغاية)، لا ينبغي أن تلاحظ السيدة جو ما نقوم به. بل ينبغي أن يتم ذلك، إذا جاز لي القول، في الخفاء. ذلك أن شقيقتك تحب التحكم، ولن تقبل بوجود مثقفين في البيت، ولن ترضى على الأخص أن أصبح مثقفاً، خشية أن أقف في وجهها».

كدت أسأله «لماذا» حين قاطعني جو قائلاً: «تمهل قليلاً، أعرف

ما ستقوله، تريد أن تعرِف لماذا لا أقف في وجهها. حسناً، إن لشقيقتك عقلاً فذاً، لكنني لست كذلك. إضافة إلى ذلك يا بيب، إنني أرى كثيراً في والدتي المسكينة كامرأة تستبعد وتحطم قلبها الشريف دون أن تحصل على قدر من الطمأنينة في حياتها، حتى إنني أخشى أن أخطئ بعدم انتهاج ما تراه المرأة صحيحاً. وأفضل كثيراً أن أعاني شخصياً من التضايق بعض الشيء. حبذا لو أنني بمفردي أعاني ذلك، حبذا لو لم يكن هناك إزعاج لك يا صديقي، ليتني أستطيع تحمل الأمر كله بنفسي، لكن هذه هي الحال يا بيب. آمل أن تتغاضى عن العيوب».

رغم صغر سني، أظن أنني سجلت تقديراً جديداً لجو ابتداءً من تلك الليلة.

كانت السيدة جو تقوم بالتجول مع العم بامبلتشوك أيام التسوق لمساعدته في شراء حجات المنزل التي تتطلب حكمة المرأة. كان ذلك يوم التسوق، وقد خرجت السيدة جو في إحدى هذه الجولات.

وها قد وصلا. قالت السيدة جو: «والآن». وهي تخلع أغطيتها بسرعة وشيء من الإثارة، فتلقي بقبعتها إلى الوراء على كتفيها حيث تتدلى بسلاسل. «إن لم يكن هذا الفتى، شكوراً هذه الليلة، فلن يكون كذلك أبداً».

بدوت شكوراً بأفضل ما يستطيعه فتىً، دون أن يعلم بعد لِم يجب أن يكون كذلك.

فقالت شقيقتي: «لنأمل فقط ألا يطوله الفساد، لكن لدي مخاوفي».

قال السيد بامبلتشوك: «من غير المحتمل أنها ستفسده، سيدتي. فهي تعرف أكثر».

هي! نظرت إلى جو وأنا أحرك شفتي وحاجبي متسائلاً، «هي»؟

فنظر جو إليّ وهو يحرك شفتيه وحاجبيه.

قالت السيدة جو بطريقتها الفظة: «حسناً، بماذا تحدقان؟ هل المنزل يحترق».؟

فأشار جو بأدب قائلاً: «هناك شخص ما ذكرها».

فقالت زوجته: «وهي هي، على ما أعتقد! إلا إذا كنت تدعو الآنسة هافيشام هو. وأشك أنك ستذهب إلى هذا الحد».

قال جو: «الآنسة هافيشام في المدينة؟».

قالت شقيقتي: «وهل يوجد في المدينة آنسة هافيشام؟إنها تريد من هذا الفتى أن يذهب ويلعب هناك. ولا شك سيذهب. فالأفضل له أن يلعب هناك. «وأضافت وهي تهز رأسها لي تشجعني أن أكون خفيفاً ورياضياً: «وإلا فسأتدبر أمره».... كنت قد سمعت أن الآنسة هافيشام في المدينة والجميع على بعد أميال سمعوا أن الآنسة هافيشام في المدينة سيدة في غاية الثراء والحزم، تعيش في منزل فخم كئيب وتحيا حياة منفردة.

فقال جو مندهشاً: «حسناً، أستغرب كيف لها أن تعرف بيب!».

صاحت شقيقتي: «أيها الأحمق! ومن قال إنها تعرفه؟».

أشار جو بأدب ثانية: «هناك من ذكر أنها تريده أن يذهب ويلعب هناك».

«ألا يمكنها أن تسأل العم بامبلتشوك إذا كان يعرف فتى لِيَذهب ويلعب هناك؟ ألا يحتمل أن يكون العم بامبلتشوك مستأجراً لديها، وأنه يذهب إلى هناك أحياناً لتسديد إيجاره؟ وألا يستطيع العم بامبلتشوك، كونه طيباً تجاهنا دائماً، أن يتكلم عن هذا الفتى الذي كنت منذ زمن خادمة مطيعة له؟».

فصاح العم بامبلتشوك: أحسنت ثانية، أسلوب جيد. حسناً عبرت!

جيد حقاً! والآن يا جوزيف فإنك تعلم بالأمر».

فقالت شقيقتي: «كلا يا جوزيف، فأنت لا تعلم أن العم بامبلتشوك، علماً منه أن مستقبل الفتى سيتحقق بذهابه إلى الآنسة هافيشام، قد عرض أن يأخذه إلى المدينة هذه الليلة، وفي عربته الخاصة، وأن يستبقيه لديه هذه الليلة ثم يأخذه إلى بيت الآنسة هافيشام في الصباح التالي».

بعد أن أوضحت هذا، أمسكت بي فجأة، فوضعت رأسي تحت حنفية وغسلت رأسي بالصابون، ونشفتني حتى بدوت غير نفسي. ثم ألبستني ثياباً نظيفة من أجمل الأنواع، ثم ارتديت أضيق بذلاتي، وعُهد بي إلى السيد بامبلتشوك الذي ألقى عليّ خطاباً كنت أعلم أنه يحترق لإلقائه: «يا بني، كن مستحباً أبداً للأصدقاء، وخاصة الذين أنشؤوك على أيديهم».

قلت: «وداعاً يا جو».

«ليباركك الله يا بيب، أيها الصديق القديم».

لم يسبق أن افترقت عنه من قبل، وماذا بشأن مشاعري وماذا بشأن رغوة الصابون، ولم أستطع رؤية نجمة من خلال العربة المكشوفة. لكنها راحت تلمع واحدة إثر أخرى، دون أن تلقي ضوءاً على التساؤل: لماذا بالله أنا ذاهب لألعب عند الآنسة هافيشام، وماذا تراني ألعب...

الفصل السابع
زيارات المذلة

تناولت الإفطار مع السيد بامبلتشوك عند الساعة الثامنة في الرواق خلف دكانه، وعند العاشرة، توجهنا إلى بيت الآنسة هافيشام ووصلناه بعد ربع ساعة. كان منزلاً قرميدياً كئيباً، فيه الكثير من القضبان الحديدية، وقد سُدّت بعض النوافذ، أما النوافذ الباقية، فقد أحاطت القضبان الصدئة بالمنخفض منها. وكانت هناك ساحة أمامية مسيجة، فكان علينا الانتظار بعد قرع الجرس ليأتي من يفتح لنا. وبينما كنا ننتظر أمام البوابة، استرقت النظر ورأيت أن إلى جانب المنزل مصنعاً كبيراً للجعة.

فُتحت نافذة ونادى أحدهم بصوت واضح يسأل: «ما الاسم؟».

أجاب دليلي: «بامبلتشوك».

فقال الصوت: «بالتمام»؟.

أُغلقت النافذة ثانية، وجاءت صبية عبر الساحة تحمل مفتاحاً بيدها. فقال بامبلتشوك: «هذا هو بيب».

رددت الصبية بالقول: «هذا هو بيب، أليس كذلك»؟.

كان السيد بامبلتشوك يدخل البوابة عندما اعترضته بالبوابة وقالت: «هل تريد أن تقابل الآنسة هافيشام؟».

أجاب بامبلتشوك: «إذا كانت الآنسة هافيشام تريد مقابلتي».

قالت الفتاة: «آه، لكنك ترى أنها لا ترغب في ذلك».

قالتها بحزم، حتى إن السيد بامبلتشوك لم يتسنَّ له الاحتجاج. لكنه رماني بنظرة حادة - وكأنني اقترفت شيئاً بحقه - ثم رحل وهو يقول: «أيها الفتى! ليكن مسلكك مفخرة لمن أنشؤوك على أيديهم».

أقفلت الصبية البوابة، وذهبنا عبر الساحة. كانت مرصوفة ونظيفة، لكن العشب كان ينمو بين الحجارة. أما أبنية مصنع الجعة فقد كانت مشرعة، وجميعها خالية ومهملة.

رأتني أنظر إلى المصنع، فقالت: «بإمكانك أن تشرب جميع أنواع الجعة التي تصنع هناك دون أن يصيبك ضرر أيها الفتى».

قلت بشيء من الحياء: «أظن باستطاعتي ذلك سيدتي».

«يفضل ألا تخمّر الجعة هناك الآن، وإلا فسدت، ألا تعتقد ذلك أيها الفتى؟».

«يبدو الأمر كذلك سيدتي».

أضافت تقول: «ليس بمعنى أن يحق لأي إنسان المحاولة. فقد توقف كل ذلك، وسيبقى المصنع متوقفاً كما هو الآن، إلى أن ينهار. أما بالنسبة للجعة المركزة، فهناك منها في الأقبية ما يكفي لإغراق المزرعة».

«هل هذا هو اسم المنزل سيدتي؟».

«أحد أسمائه أيها الفتى».

«وهل له أكثر من اسم سيدتي؟».

«اسم آخر. إنه ساتيس، وهو يعني باليونانية أو اللاتينية كافٍ».

فقلت: «بيت كافٍ! اسم غريب سيدتي».

أجابت: «أجل، لكنه يعني أكثر مما يبدو. يعني أنه متى يتم تركه، فالذي يملكه لن يحتاج لشيء آخر. لابد أنه كان يسهل إرضاؤهم في تلك الأيام على ما أعتقد، لكن لا تتلكأ أيها الفتى».

رغم أنها كانت تدعوني «فتى»، مراراً ودونُ أي اكتراث، فقد كانت في مثل سني تقريباً. بدت أكبر مني بكثير طبعاً كونها فتاة جميلة تفاخر بنفسها. كانت تهزأ بي وكأنها في الواحدة والعشرين من عمرها، وكأنها ملكة.

دخلنا المنزل من باب جانبي، وأول ما لاحظته هو أن جميع الممرات مظلمة، وأنها تركت شمعة مضاءةً هناك. فتناولتْها وسارت في المزيد من الممرات ثم صعدنا درجاً كان بدوره شديد الظلمة، ولم يُنر طريقنا سوى تلك الشمعة. في نهاية المطاف وصلنا إلى باب غرفة، فقالت: «ادخل». ثم رحلت والشمعة معها.

أزعجني ذلك كثيراً وانتابني شيء من الخوف. لكنني قرعت الباب، فأوعز إليَّ صوت من الغرفة بأن أدخُل. دخلت ووجدت نفسي في غرفة فسيحة تفيض بأنوار الشموع. لم يكن فيها أثر لضوء النهار. كانت هناك طاولة أنيقة للتجميل، وفي كرسي وثير تجلس أغرب امرأة رأيتها أو يمكن أن أراها في حياتي، وقد أراحت بكوعها وأناخت برأسها على تلك اليد.

كانت ترتدي ثياباً فاخرة كلها بيضاء، وكان حذاؤها أبيض اللون، ويتدلى على شعرها غطاء طويل أبيض، وقد غرست في شعرها أزهاراً عرائسية، لكن شعرها كان أبيض. كانت بعض الجواهر المتلألئة تلمع حول عنقها ويديها، فيما كانت بعض الجواهر الأخرى تتلألأ

على الطاولة. لم تكن قد انتهت من اللبس بعد، إذ لم يكن في قدمها سوى فردة حذاء واحدة فالأخرى كانت على الطاولة قرب يدها ولم ترتدِ سلسلتها وساعتها بعد.

كل شيء حولي، مما يفترض أن يكون أبيض اللون، كان أبيض منذ زمن بعيد. وقد فقد بهجته، فبُهت واصفرّ لونه. العروس في ثوب العرس كانت ذابلة كثوبها، ولم يبقَ فيها بريق سوى بريق عينيها الغائرتين. كانت كتمثال شمع أو هيكل عظمي شاحب. نظرت إليّ، وكنت سأصرخ لو استطعت ذلك.

قالت: «من هناك؟».

«بيب، سيدتي».

«بيب؟».

«صبي السيد بامبلتشوك، سيدتي. جئت لألعب».

«اقترب، دعني أنظر إليك. اقترب أكثر».

عندما وقفت أمامها متجنباً نظراتها، لاحظت الأشياء المجاورة بالتفصيل، فوجدت أن ساعتها متوقفة عند التاسعة إلا ثلثاً. وأن ساعة الحائط كذلك متوقفة عند التاسعة إلا ثلثاً.

قالت الآنسة هافيشام: «انظر إليّ، هل تخاف من امرأة لم ترَ الشمس منذ ولادتها؟».

أجبتها قائلاً: «كلا». لكنها كانت كذبة.

«هل تعرف ما ألمس هنا؟».

«أجل، سيدتي».

«ماذا ألمس؟».

«قلبكِ».

«محطم».

نطقت الكلمة بنظرة شوق، ونبرة حازمة، وابتسامة غريبة بها شيء من المباهاة.

قالت الآنسة هافيشام: «إني متعبة وأريد شيئاً يسليني. لقد سئمت الرجال والنساء. العب. لديّ هوى عليل في أن أرى البعض يلعب، هيا، هيا».

وأشارت بأصابعها بتبرّم: «العب، العب».

وقفت أنظر إلى الآنسة هافيشام في موقف أعتقد أنها اعتبرته أسلوباً معانداً. فقالت: «هل أنت حرون وعنيد؟».

«كلا، إني في غاية الأسف تجاهك، وآسف كثيراً لأنني لا أستطيع اللعب الآن. إن تذمّرت مني، سأقَع في مشكلة مع شقيقتي. لذا سأفعل ذلك إن استطعت. لكن المكان هنا غير مألوف وغريب جداً. كما أنه في غاية الرهافة والكآبة».

فتمتمت قائلة: «جديد للغاية بالنسبة له، وقديم للغاية بالنسبة لي. غريب جداً بالنسبة له، ومألوف جداً بالنسبة لي. وحزين للغاية بالنسبة لكلينا! نادِ على استيلا، نادِ على استيلا عند الباب».

فعلت ذلك، وعندما أتت هذه أشارت لها الآنسة هافيشام بأن تقترب. فتناولت جوهرة من على الطاولة لتجربها على صدرها الفتيّ الجميل قبالة شعرها البني اللطيف.

«ستكون لك ذات يوم يا عزيزتي، وستستخدمينها جيداً. دعيني أراك تلعبين الورق مع هذا الفتى».

«مع هذا الفتى! كيف ذلك، إنه فتى عامل عاميّ».

أظن أنني سمعت جواب الآنسة هافيشام لكنه بدا مقيتاً «ماذا؟ يمكنك تحطيم فؤاده!».

فسألتني استيلا بازدراء بالغ: «ماذا تلعب أيها الفتى؟».

«لا شيء سوى لعبة المتسوّل يا سيدتي».

قالت الآنسة هافيشام لاستيلا: «افقريه».

وهكذا جلسنا للعب الورق.

وبينما كانت استيلا توزع الورق، أومأت بنظرة ثانية إلى طاولة التجميل ورأيت أن الحذاء الذي عليها بات أصفر اللون بعد أن كان أبيض فيما مضى، ولم يرتده أحد. نظرت إلى القدم التي كانت من دون حذاء، فرأيت أن الجورب الذي يغطيها بات أصفر اللون بعد أن كان أبيض، فيما مضى وأصبح مهترئاً من كثرة الاستهلاك. قالت استيلا بازدراء قبل أن تنتهي من الدور الأول: «إنه يسمي ورقة الجندي شب، هذا الفتى! تباً ليديه الخشنتين وحذائه الغليظ!».

لم يخطر لي أبداً أن أخجل من يدي من قبل؛ لكنني بدأت أعتبرهما يدين كريهتين. كان احتقارها شديداً لدرجة أنه كان معدياً فالتقطته.

فازت بالدور، فقمت بتوزيع الورق. أخفقت في التوزيع، وكان ذلك طبيعياً، لعلمي أنها كانت تتربص لإخفاقي ودعتني بالفتى العامل الأحمق المرتبك.

توجهت إلى الآنسة هافيشام بالقول بينما كانت تراقبنا: «لم تقل عنها شيئاً، إنها تقول عنك أشياء جارحة، لكنك لا تقول عنها شيئاً. فما رأيك فيها؟».

فقلت متلعثماً: «لا أرغب في القول».

قالت الآنسة هافيشام وهي تنحني: «اهمس في أذني».

فأجبت هامساً: «أعتقد أنها مغرورة».

«هل من مزيد؟».

«أعتقد أنها قاسية في التحقير».

«هل من مزيد؟».

«أظن أنني أرغب في العودة إلى البيت».

«وألا أراها ثانية، رغم جمالها الفائق؟».

«لست متأكداً من أنني لا أريد رؤيتها ثانية، لكنني أود أن أعود للبيت الآن».

ثم قالت الآنسة هافيشام بصوت مرتفع: «ستذهب بعد قليل، والآن أكمل اللعب».

أكملت اللعب مع استيلا فهزمتني. ألقت بالورق على الطاولة بعدما فازت بها جميعاً، وكأنها تحتقر الورق بعدما كسبته مني. وتساءلت الآنسة هافيشام: «متى ستأتي ثانية؟ دعني أفكر. عُد بعد ستة أيام. استيلا، خذيه إلى الطابق السفلي وقدمي له شيئاً يأكله. اذهب يا بيب».

نزلت استيلا أمامي إلى الطابق الأسفل وهي تحمل شمعة، وحين فتحت البوابة الجانبية، أزعجني ضوء النهار المتوهج. فقالت: «انتظر هنا أيها الفتى». ثم توارت وأغلقت الباب، وبينما أنا وحدي في الساحة، نظرت إلى يديّ الخشنتين وإلى حذائي الغليظ. لم يسبق أن تسببا بالإزعاج لي فيما مضى، لكنهما باتا مصدر إزعاج الآن. تمنيت لو أن جو نشأ على تربية ألطف، فأنشأ حينذاك مثله.

عادت الفتاة بشيء من الخبز واللحم وإبريق صغير من الجعة. وضعت الإبريق على الأرض وأعطتني الخبز واللحم دون أن تنظر إليّ، بما ينم عن بالغ الازدراء وكأنني كلب حقير. شعرت بمذلة شديدة اغرورقت معها الدموع في عينيّ. رمقتني بنظرة فرح لأنها تمكنت من دفعي للبكاء. ثم انصرفت عني.

حين ذهبت، نظرت حولي أبحث عن مكان أخبئ فيه وجهي.

وتواريت خلف إحدى بوابات مصنع الجعة ورحت أبكي.

في نهاية الأمر مسحت وجهي بكمي وخرجت من خلف البوابة. كان الخبز واللحم مقبولين وأثارت الجعة فيّ بعض الدفء.

وما لبثت أن جاءت تحمل المفاتيح لكي تفتح الباب. فتحت البوابة ووقفت تمسك بها. كنت أخرج من البوابة دون أن أنظر إليها حين لمستني تسأل: «لماذا لا تبكي؟».

«لأنني لا أريد ذلك».

فقالت: «بلى لقد كنت تبكي حتى غشي بصرك. وإنك الآن على وشك البكاء».

ضحكت بازدراء ودفعتني إلى الخارج، ثم أقفلت البوابة خلفي. سرت إلى البيت في غمٍّ شديد وأنا أفكر في كل ما رأيتُ، وقد أدركت بالفعل أنني مجرد عامل عاميّ.

الفصل الثامن
المركبة المخملية

عندما وصلت إلى البيت، كانت شقيقتي في غاية التوق لمعرفة كل شيء عن الآنسة هافيشام، فطرحت عدداً من الأسئلة. وسرعان ما راح الضرب ينهال عليّ ومن الوراء ويرتطم وجهي بجدار المطبخ لأنني لم أجب عن تلك الأسئلة بالتفصيل.

والأسوأ من ذلك كان قدوم السيد بامبلتشوك العجوز المزعج بعربته لتلقي التفاصيل. سأل السيد بامبلتشوك: «كيف هي الآنسة هافيشام؟».

قلت له: «إنها في غاية الطول والسمرة».

فسألت شقيقتي: «هل هي كذلك يا عمي؟».

أومأ السيد بامبلتشوك بعينيه موافقاً، مما جعلني أستنتج في الحال أنه لم يرَ الآنسة هافيشام أبداً، لأنها لم تكن كذلك على الإطلاق. سأل السيد بامبلتشوك: ماذا كانت تفعل حين ذهبت اليوم؟».

أجبت: «كانت تجلس في مركبة مخملية سوداء».

حدق السيد بامبلتشوك والسيدة جو إلى بعضهما وكررا معاً: «في مركبة مخملية سوداء؟!».

قلت: «أجل، وقد قدمت لها الآنسة استيلا الكعك والنبيذ من نافذة العربة، على طبق من ذهب».

سأل السيد بامبلتشوك: «وهل كان شخص آخر هناك؟».

قلت «أربعة كلاب».

«كبيرة أم صغيرة؟».

«ضخمة، وكانت تتقاتل على قطعة لحم في سلة فضية».

حدق السيد بامبلتشوك والسيدة جو إلى بعضهما ثانية في دهشة كبيرة. ثم سألت شقيقتي: «وأين كانت تلك العربة بالله عليك؟».

«في غرفة الآنسة هافيشام». وحدقا إلى بعضهما مرة ثانية. قلت: «ولكن لم تكن هناك جياد مربوطة فيها».

فسأل بامبلتشوك: «وبماذا لعبت يا فتى؟».

«لعبنا بالأعلام، استيلا لوحت بالعلم الأزرق وأنا بالعلم الأحمر، ولوحت الآنسة هافيشام بعلم يتألق بنجوم ذهبية صغيرة. ثم لوحنا جميعنا بسيوفنا وأطلقنا الهتاف».

فرددت شقيقتي: «سيوف، من أين أتيتم بالسيوف؟».

«من خزانة، وقد رأيت فيها مسدسات مربى وحبوب. ولم يكن هناك ضوء للنهار في الغرفة، بل كانت مضاءة بالشموع».

حدقا ببعضهما ثانية، وشرعا يبحثان في تلك الأعاجيب التي نجوت منها. وكان الحديث ما زالِ قائماً حين عاد جو من عمله لتناول فنجان من الشاي، فأخبرته شقيقتي بتجاربي المزعومة.

والآن، حين رأيت جو يفتح عينيه الزرقاوين ويحركهما بدهشة

شديدة، شعرت بالأسف لأنني لفقت الكثير من الأكاذيب. وبعد أن ذهب بامبلتشوك، تسللت إلى دكان جو وقلت له: «جو، هل تذكر كل ما قيل عن الآنسة هافيشام؟».

قال جو: «أذكر؟ إنني أصدقك! رائع!».

«إنه أمر فظيع يا جو. كان كذباً. كله كذب».

ثم أخبرته أنني أشعر بتعاسة بالغة، وأنني لم أستطع التعبير عن نفسي للسيدة جو وبامبلتشوك، وأنه كانت هناك شابة جميلة، لدى الآنسة هافيشام، تعاني من غرور رهيب، وأنها قالت إنني عامي، وأن الكذب قد جاء عن ذلك بشكل ما.

وبعد شيء من التفكير قال جو: «هناك أمر يمكنك التأكد منه، وهو أن الأكاذيب هي مجرد أكاذيب. فلا تنطق بالمزيد منها يا بيب. أما بالنسبة لكونك عامياً، فإنك لن تستطيع أن تكون إلا عامياً عبر الكذب والخداع».

حين صعدت إلى غرفتي الصغيرة واستلْقيت على سريري، رحت أفكر في كل هذا، لكنني فكرت كم ستعتبر استيلا والآنسة هافيشام جو عامياً، وهو مجرد حداد: كم حذاؤه غليظ، وكم يداه خشنتان.

الفصل التاسع
المحبة الزائفة

عدْت إلى منزل الآنسة هافيشام في الموعد المضروب، وحضرت استيلا حين قرعت جرس البوابة. فسارت أمامي في الممر المظلم حيث كانت تضع شمعتها، فتناولت الشمعة وقالت: «عليك سلوك هذا الطريق اليوم».

وأخذتني إلى قسم آخر من المنزل. وبينما نحن نسير في الممر المظلم، توقفت استيلا فجأة، وقالت بعد أن أدارت وجهها بالقرب من وجهي: «حسناً».

فأجبت وأنا أكاد أقع فوقها، لكنني تمالكت نفسي: «حسناً يا آنسة؟».

وقفت تنظر إليَّ، فوقفت بالطبع أنظر إليها.

«هل أنا جميلة؟».

«أجل، أعتقد أنك جميلة جداً».

«هل أنا أتسبب بتحقيرك؟».
«ليس كثيراً مثلما كنت المرة الماضية».
«أليس كثيراً هذا؟».
«كلا».
برقت عيناها غضباً حين طرحت عليَّ السؤال الأخير، فصفعت وجهي بأقصى قوتها حين أجبتها. وقالت: «والآن، أيها الوحش الفظ الصغير، ما رأيك فيَّ؟».
«لن أقول ذلك».
«لأنك ستقول ذلك في الطابق العلوي، أليس كذلك؟».
فقلت: «كلا، الأمر ليس كذلك».
«لماذا لا تبكي ثانية، أيها البائس الصغير؟».
«قلت: «لأنني لن أبكي بسببك ثانية».
وكان ذلك كذباً، فقد كنت أبكي بداخلي بسببها. وأعلم مدى الألم الذي سببتْه لي لاحقاً.
صعدنا إثر ذلك إلى الطابق الأعلى، إلى غرفة الآنسة هافيشام حيث تركتني استيلا عند الباب. ومكثت هناك إلى أن أشاحت الآنسة هافيشام بنظرها نحوي من طاولة التجميل. فقالت من دون دهشة أو استغراب: «هكذا! فالأيام قد ولّت، أليس كذلك؟».
«أجل سيدتي، اليوم هو..».
«رويدك، رويدك، رويدك!».
وبحركة نافذة من أصابعها تابعت تقول:«لا أريد أن أعرف. هل أنت جاهز للعب؟».
«لا أظن ذلك سيدتي».
استوضحت تقول: «ليس للعب الورق ثانية؟». وهي تدقق بنظرة فاحصة.

«أجل سيدتي، يمكنني القيام بذلك لو كنتم بحاجة إليّ».

فقالت الآنسة هافيشام وقد عيل صبرها :«بما أن هذا البيت يجعلك حزيناً أيها الفتى، وأنت لا ترغب في اللعب، فهل ترغب في العمل؟».

قلت إنني أرغب في ذلك كثيراً.

«إذن اذهب إلى الغرفة المقابلة وانتظر حتى أجيء».

فعلت ذلك، ورأيت أن نور الشمس قد حُجب عن هذه الغرفة كذلك، وأن الشموع لم يكن لها سوى ضوء باهت.

كان كل شيء في الغرفة يكسوه الغبار، وكانت هنالك طاولة طويلة فرش عليها غطاء، وكأن وليمة كان يتم الإعداد لها حين تجمد المنزل وتوقفت الساعات جميعها معاً. في وسط الطاولة رأيت ما يشبه كومة ضخمة من بيوت العنكبوت، والعناكب تتسارع دخولاً وخروجاً.

سمعت الفئران كذلك تخشخش خلف الدرف، بينما الخنافس السوداء تجول حول الموقد.

وبينما كنت أراقب تلك الزواحف عن بعد، وضعت الآنسة هافيشام يدها فوق كتفي. وأمسكت باليد الأخرى عصا تتكئ عليها.

فقالت وهي تشير بالعصا الطويلة إلى الطاولة: «هنا سأُسَجّى حين أموت. سيأتون لإلقاء النظرة عليّ هنا».

ثم قالت وهي تشير إلى خيوط العنكبوت: «ماذا تعتقد ذلك يكون؟».

«لست أدري سيدتي».

«إنها كعكة عظيمة، كعكة زفاف، إنها لي».

ثم جالت بنظرها حول الغرفة وقالت وهي تتكئ على كتفي: «هيا

بنا، هيا بنا، هيا بنا. ساعدني على السير، ساعدني على السير».

فهمت من قولها أن ما ينبغي فعله هو مساعدة الآنسة هافيشام على السير حول الغرفة، فبدأت بذلك على الفور، واتكأت على كتفي ورحنا نسير حول الغرفة. وبعد فترة قالت: «نادِ استيلا».

فخرجت إلى مصطبة الدرج وناديت على استيلا. فجاءت هذه برفقة أربعة من أقارب الآنسة هافيشام، ثلاث سيدات ورجل. وقد جهد كل منهم أن يفوق الآخرين في اللطف تجاه الآنسة هافيشام، وفي التعبير عن مشاعر الحب والغيرة تجاهها.

لكنهم لم يتمكنوا من خداع الآنسة هافيشام، لعلمها أن تعابيرهم عن المحبة زائفة، وأنهم لم يأتوا إلا سعياً لأموالها التي كانوا يأملون وراثتها بعد موتها. لقاء ذلك، فقد كانت تسخر من جشعهم وتلقي عليهم الشتائم ما لم يتجرؤوا على الاستياء منها علناً. كل ذلك كان دون أن تتوقف لحظة عن السير بسرعة حول الغرفة.

ثم أمرتهم بالذهاب. وبينما ابتعدت استيلا وهي تنير لهم الطريق، قالت لي الآنسة هافيشام «إنه يوم مولدي يا بيب، ولا أسمح للذين كانوا هنا الآن، ولا لأي أحد بالتحدث عن ذلك. إنهم يأتون في هذه المناسبة لكنهم لا يتجرؤون على ذكرها».

عادت استيلا، فأمرتْنا الآنسة هافيشام بلعب الورق، لذا عدنا لغرفتها، ولعبنا كالسابق. أخذت الآنسة هافيشام تراقبنا طوال الوقت، وتلفت انتباهي إلى جمال استيلا وتدفعني للتنبه بذلك أكثر بتجربة المجوهرات على صدر استيلا وشعرها، بعد أن لعبنا ستة أدوار، حدد يوم لعودتي، وتم اصطحابي إلى الفناء في الأسفل لإطعامي كالسابق. مما يشبه الكلاب. وهناك أيضاً، تُركت أتجول كما يحلو لي، صدف أن نظرت داخل إحدى النوافذ، فوجدت

لدهشتي العظيمة، أنني أتبادل النظر مع فتى شاب شاحب اللون، أحمر الجفون، خفيف الشعر.

توارى هذا بسرعة، ثم ظهر ثانية بالقرب مني، وقال: «مرحباً أيها الصغير».

فقلت: «مرحباً».

«من أدخلك؟».

«الآنسة استيلا».

قال الشاب الهزيل: «تعالَ نتقاتل».

لم يكن بوسعي سوى اللحاق به، فقد كان أسلوبه جازماً، وكنت من الذهول حتى تبعته حيث سار وكأنني تحت تأثير سحر.

قال: «لكن توقف قليلاً، لابد لي أن أبرر لك سبب القتال أيضاً. فإليك به!». وبطريقة مزعجة للغاية ضرب كفيه، ورفع بأحد ساقيه للخلف، ثم شد بشعري، وأحنى رأسه ونطح به معدتي.

فضربته وكنت على وشك ضربه ثانية حتى بدأ يترنح إلى الأمام والخلف. ثم قال: «تعالَ إلى الحلبة».

لذا تبعته إلى طرف الحديقة. لم يخلع إذّاك سترته وصدرته وحسب، بل قميصه أيضاً.

وعلى الرغم من أنه لم يبدُ ممتلئ العافية، لكن استعداداته المخيفة أرعبتني بالفعل. لكن، لدهشتي، ما إن ضربته حتى هوى على ظهره، وتمدد ينظر إليّ وأنفه ينزف.

لكنه نهض على قدميه في الحال، وبعد أن مسح أنفه، بدأ يقاتل من جديد. وأكثر ما أدهشني هو رؤيته ملقى على ظهره وهو ينظر إليّ بعين أصيبت بكدمة سوداء.

بدا في غاية الشجاعة والبراءة، إذ رغم أنني لم أعرض عليه القتال،

لكنني شعرت بمتعة دفينة بانتصاري. فارتديت ثيابي وقلت: «هل أستطيع مساعدتك؟».

فقال: «لا، شكراً».

قلت: «عمت مساءً».

فقال: «عمت مساءً».

عندما رجعت إلى الساحة، وجدت استيلا في انتظاري تحمل المفاتيح. كان وجهها يشعّ توردا وكأن شيئاً حدث بما يدخل الفرحة إلى قلبها.

قالت: «تعالَ هنا! يمكنك تقبيلي إن أردت ذلك».

فقبلْتُ خدها حين أدارته لي، لكنني شعرت بأن القبلة قدمت للفتى العامي الخشن، مثلما يُعطى قطعة من النقود، وأنها لم تكن بذات قيمة.

الفصل العاشر
خمسة وعشرون جنيهاً

قلقت في شأن الشاب الهزيل، وكلما فكرت في القتال وتذكرت الشاب وهو ممدد على ظهره، تأكد لي أكثر ضرورة القيام بشيء ما. حتى إنني لزمت البيت لبضعة أيام، وكنت أنظر إلى باب المطبخ بحذر شديد قبل الذهاب في مهمة، لئلا يكون رجال الشرطة يبحثون عني. وعندما حان موعد عودتي للمكان الذي حصل فيه العراك، بلغت مخاوفي ذروتها. إنما كان عليّ الذهاب إلى منزل الآنسة هافيشام، ومع ذلك، فإن شيئاً لم يُذكر عن قتالنا، ولم يظهر أي شاب هزيل.

رأيت كرسياً بعجلات خارج غرفة الآنسة هافيشام، ومنذ ذلك النهار صارت لي مهمة نظامية هي دفع الآنسة هافيشام على هذا الكرسي (حين تكون متعبة من السير وهي تستند بيدها على كتفي) حول غرفتها، ثم مروراً بمصطبة الدرج، وحول الغرفة الأخرى.

وبينما بدأ كل منا يعتاد الآخر، أخذت الآنسة هافيشام تتحدث

معي أكثر، فسألتني عما تعلمته وعما سأكون. فأخبرتها أنه سيعهد بي إلى جو لأتلقى المهنة على يده؛ وبالغت بشأن جهلي بكل شيء، وبأنني أرغب في معرفة كل شيء، على أمل أن تقدم لي بعض المعونة لتحقيق ذلك. لكنها لم تفعل. كما لم تعطني من المال أو أي شيء آخر باستثناء غدائي اليومي.

كانت استيلا دائماً هناك، وكانت دائماً تقوم باصطحابي إلى الداخل والخارج، لكنها لم تقل إن بإمكاني تقبيلها من جديد. في بعض الأحيان، كانت تحتملني ببرودة ؛ أحياناً أخرى كانت حميمية؛ وكانت في بعض الأحيان تخبرني بحماسة أنها تكرهني. أما الآنسة هافيشام فكانت دائماً تسألني بهمس، أو حين نكون على انفراد: «هل تزداد جمالاً يا بيب؟». وحين أجيب بنعم، كانت تفرح بتوق شديد. أحياناً حين يكون مزاج استيلا من التنوع والتضارب حتى كنت أحتار ماذا تراني أقول أو أفعل، كانت الآنسة هافيشام تعانقها بمحبة وتهمس بأذنها: «حطمي قلوبهم يا عزيزتي ويا أملي، حطمي قلوبهم دون أي رحمة!».

في غضون ذلك، كانت المشاورات تدور في المطبخ بين شقيقتي وذلك الأحمق بامبلتشوك. فكان ذلك التعيس يجرني من مقعدي (فيما يمسك عادة بياقتي) حيث أكون منزوياً في سكينة، فيضعني قبالة النار وكأنني سأُطهى، ثم يبدأ يقول: «والآن سيدتي، هو ذا الفتى! هو ذا الفتى الذي أنشأته على يدك. ارفع رأسك يا فتى وكن دائم الامتنان للذين قاموا بذلك، «ثم يشرع مع شقيقتي بالتأمل السخيف حيال الآنسة هافيشام، وعما ستفعله معي ومن أجلي و حتى اعتدت على الرغبة في الانفجار بالبكاء، والاندفاع نحو بامبلتشوك أضربه بقبضتي مرة تلو الأخرى.

لم يشترك جو بهذه النقاشات، ولكن شقيقتي شرعت في أنه لا يرغب بإبعادي عن دكانه فغضبت منه ومني.

بقينا على هذه الحال مدة طويلة. وفي ذات يوم، قالت لي الآنسة هافيشام: «إنك تزداد طولاً يا بيب!».

لم تقل أكثر من هذا في ذلك الحين. لكنها قالت في المرة الثانية حين ذهبت لرؤيتها: «أخبرني ثانية، ما اسم الحداد الذي تعمل لديه؟».

«جو غارجري، سيدتي». هل هو المعلم الذي كنت ستتلمذ على يديه؟».

«أجل، آنسة هافيشام».

«يجدر بك أن تتلمذ في الحال. حبذا لو يأتي غارجري إلى هنا ويصطحب الأوراق الضرورية».

قلت لها إنني لا شك لدي في أنه سيشرًّف بهذه الدعوة.

«إذن، فليأتِ بالحال وكن برفقته».

بعد يومين، ارتدى جو ثياب نهار الأحد لمرافقتي إلى منزل الآنسة هافيشام. وأعلنت شقيقتي على عزمها الذهاب معنا إلى المدينة، فنتركها لدى بامبلتشوك وتعود معنا بعد أن نتفق مع «سيداتنا الأنيقات».

أُقفل دكان الحداد ذلك النهار، واتجهنا إلى المدينة، فذهبت مع جو إلى منزل الآنسة هافيشام مباشرة. فتحت استيلا البوابة. وحالما ظهرت، تناول جو قبعته ووقف يمسك بها بيديه.

أخبرتني استيلا أنه يمكننا أن ندخل معاً، فأمسكت بذراع جو واصطحبته إلى حيث تجلس الآنسة هافيشام. كانت تجلس إلى طاولة التجميل فنظرت إلينا في الحال، وقالت لجو: «أوه، أأنت زوج

شقيقة هذا الفتى؟ وقد أنشأته بهدف أن يتتلمذ على يديك، أليس كذلك يا سيد غارجري؟».

طوال المقابلة، كان جو يصر على مخاطبتي بدلاً من الآنسة هافيشام، فقال: «أنت تعلم يا بيب أننا كنا دائماً أصدقاء، ونحن نأمل بمساعدتك لي في الدكان. لكن إن كان لديك أي اعتراض يا بيب، أرجو الإفصاح عن ذلك، وسيهتمون بالأمر».

قالت الآنسة هافيشام: «هل أبدى الفتى أي اعتراض؟ وهل يحب المهنة؟».

فقال جو: «أنت تعلم يا بيب أنها كانت دائماً أمل فؤادك».

لم أفلح في جعله يدرك أن عليه مخاطبة الآنسة هافيشام مباشرة. وكان كلما أومأت له ووجهت إليه الإشارات، يزداد إصراراً على مخاطبتي، معتبراً على ما يبدو أن من غير اللائق مخاطبتها.

سألت الآنسة هافيشام: «وهل أحضرت الأوراق معك؟».

فقال جو وكأن السؤال غير منطقي إلى حد ما: «عجباً يا بيب، تعلم أنك رأيتني أضعها في قبعتي، لذا لا بد أنك تعرف أنها هنا».

ثم أخرجها من قبعته وسلمها إليّ بدلاً من الآنسة هافيشام. أخشى أني خجلت من صديقي العزيز الطيب حين رأيت أن استيلا تقف وراء كرسي الآنسة هافيشام، وأن في عينيها ضحكة ساخرة. أخذت الأوراق منه وأعطيتها للآنسة هافيشام.

قرأتها الآنسة هافيشام، ثم قالت لجو: «لم تكن تتوقع أجراً لقاء تعليم الفتى مهنتك؟».

فقلت له حين لم يأتِ بجواب: «جو! لماذا لا تجيب؟».

فقال: «بيب، قصدت القول إن السؤال لا يحتاج إلى جواب بيني وبينك، وأنت تعلم حق العلم أن الجواب هو كلا».

تناولت الآنسة هافيشام كيساً صغيراً من الطاولة التي بقربها وقالت: «لقد كسب بيب بعض المال هذا، إليك به. يوجد خمسة وعشرون جنيهاً في هذا الكيس. أعطها لسيدك يا بيب».

بدا جو وكأنه فقد عقله تماماً من الدهشة حيال شخصها الغريب والغرفة الغريبة، فلم يشأ حتى الآن إلا أن يخاطبني دون سواي. فقال: «هذا لطف منك يا بيب. إنه موضع ترحيب بالغ، رغم أنني لم أكن لأطلب ذلك».

قالت الآنسة هافيشام: «وداعاً يا بيب! اصطحبيهما إلى الخارج يا استيلا». فسألتها: «هل ينبغي أن أعود ثانية، آنسة هافيشام؟».

«كلا، غارجري هو سيدك الآن. غارجري! كلمة من فضلك!».

وبينما نادت عليه أن يعود ثانية أثناء خروجه من الغرفة، سمعتها تقول لجو: «كان الفتى طيباً هنا، وتلك هي مكافأته. ولا شك، بصفتك رجلاً شريفاً، فليس لك أن تتوقع المزيد».

كيف خرج جو من الغرفة، لم أستطع التحديد؛ لكنني أعلم أنه حين خرج فعلاً، شرع يصعد إلى الأعلى بدلاً من النزول على السلم، فتبعته وأمسكت به. بعد دقيقة كنا خارج البوابة، فتمَّ إقفالها وتوارت استيلا».

صاحت شقيقتي حين عدنا إلى العم بامبلتشوك: «حسناً، ما الذي أعطته للصبي؟».

طلب جو منها ومن بامبلتشوك أن يحزرا. فاعتبرا أن عشرين جنيهاً هي مكافأة كريمة، لكن جو قال بجبور وهو يقدم الكيس لشقيقتي: «إنها خمسة وعشرون جنيهاً».

فقال بامبلتشوك وهو ينهض لمصافحتها: «إنها خمسة وعشرون جنيهاً سيدتي. وهذا لا يتجاوز فضائلك، أتمنى أن تنعمي بالمبلغ».

ثم أمسكني بذراعي وقال: «والآن، ترون يا جوزيف وزوجته، فأنا من الذين ينجزون دائماً ما يبدؤون به ينبغي في الحال تسجيل الفتى قانونياً لدى مدرب مهني».

ذهبنا في الحال إلى دار البلدية لقيدي متدرباً لدى جو أمام القاضي. فتمَّ التوقيع على المستندات، وأصبحت «ملزماً».

حين عدنا إلى بامبلتشوك، كانت شقيقتي في غاية النشوة بالخمسة والعشرين جنيهاً، حتى إنها أصرت على أن نتناول الطعام في مطعم «البلو بور» (الخنزير الأزرق)، حيث دُعي آل هابل والسيد ووبسيل.

كان يوماً أمضيته في كآبة بالغة، إذ لم يُسمح لي بالذهاب للنوم، بل كانوا كلما رأوني أغفو، يعمدون إلى إيقاظي ويطلبون إليّ أن أمتع النفس.

عدنا في نهاية المطاف إلى المنزل، وحين دخلت غرفة نومي الصغيرة كنت أشعر بتعاسة بالغة، وغامرني اعتقاد راسخ بأنني لن أحب مهنة جو. لقد أحببتها فيما مضى، لكن الماضي غير اليوم.

كنت مكتئباً للغاية في أول يوم عمل من فترة التدريب، لكنني كنت سعيداً لأنني لم أتفوه بكلمة من هذا أمام جو. إنه الشيء الوحيد تقريباً الذي يسرني معرفته عن نفسي في ذلك الخصوص.

من يستطيع قول «ما كنت أريده؟» كيف لي أن أقول حين كنت أجهل الأمر تماماً؟ ما كنت أخشاه هو أن أتطلع في ساعة مشؤومة، حين أكون في أشد الحالات اتساخاً وعامية، فأرى استيلا تنظر إليّ من أحد النوافذ في الدكان. وتملكني الخوف من أنها ستجدني، عاجلاً أم آجلاً، بوجه أسود ويدين سوداوين، أقوم بأخشن جزء من عملي، فتنتصر عليّ وتحتقرني.

الفصل الحادي عشر
اورليك العجوز

كان جو يستخدم عاملاً لقاء أجر أسبوعي اسمه أورليك. كان هذا شخصاً داكن اللون، عريض المنكبين، مرخي الأطراف، وصاحب قوة شديدة. لم يكن يحبني، وحين بدأت أتدرب لدى جو، ازداد مقتاً تجاهي، اعتقاداً منه بأنني سأحل مكانه.

رغبت في زيارة الآنسة هافيشام واستيلا، فطلبت من جو إعطائي نصف نهار عطلة. وبينما كنت أذكّره بذلك في الدكان قال أورليك: «مهلاً سيدي، لن تميز بيننا بالتأكيد. إن حظِي بيب بنصف نهار عطلة، فافعل ذلك مع أورليك العجوز. «كان دائماً يطلق على نفسه اسم أورليك العجوز».

«لِم؟ وماذا ستفعل بنصف النهار إن حصلت عليه؟».

ماذا سأفعل به؟ وماذا سيفعل به هو؟ سأفعل به بقدر ما فعل».

فقال جو: «أما بالنسبة إلى بيب، فهو ذاهب إلى المدينة».

أجاب العامل: «حسناً إذن، بالنسبة إلى أورليك العجوز فهو ذاهب

إلى المدينة. فاثنان يمكنهما الذهاب إلى المدينة».

فقال جو: «لا تغضب».

فتمتم أورليك متذمراً: «سأفعل إن شئت ذلك. والآن يا سيدي، كن عادلاً. لا تمييز في هذا الدكان، كن إنساناً!».

قال جو: «حسناً، بما أنك تلتزم بعملك عامة مثل سائر الرجال، ليكن نصف نهار عطلة للجميع!».

كانت شقيقتي تقف صامتة في الساحة بحيث كان يمكنها سماع الحديث، فتطلعت بسرعة عبر إحدى النوافذ، وقالت لجو: «هذا شأنك أيها الأحمق، تعطي العطل هكذا لأشخاص بلداء. لابد أنك رجل غني لتنفق الأجور على هذا النحو، ليتني كنت سيده!».

فرد أورليك بسرعة: «حسبك أن تكوني سيد الجميع لو تسنى لك ذلك».

قال جو: «دعها وشأنها».

فأجابت شقيقتي وقد بدأت تستشيط غضباً: «سأكون ندة لجميع الحمقى وجميع الأشرار».

هدر أورليك قائلاً: «أنت امرأة شريرة، أيتها الأم غارجري».

قال جو: «دعها وشأنها، هلا سمحت؟».

فقالت شقيقتي وقد بدأت بالزعيق: «ماذا قلت؟ ماذا قلت؟ بيب، ماذا قال لي ذلك التافه أورليك؟ ماذا دعاني فيما زوجي يقف أمامه؟ آه، آه، آه... بماذا نعتني برجل دنيء أقسم أن يدافع عني؟ آه، أمسكوا بي! آه!».

وبينما هي في ذروة الغضب، اندفعت إلى الباب الذي أقفلته لحسن الحظ.

لم يتسنّ لجو المسكين الآن سوى مواجهة عامله وسؤاله عما

يقصده من التدخل بينه وبين السيدة جو، وعلاوة على ذلك، إن كان من الرجولة بما يكفي القتال. وهكذا اندفع الاثنان نحو بعضهما البعض كعملاقين جبارين. لكنني لم أر رجلاً في الجوار يستطيع أن يقف في وجه جو. أما أورليك الذي بدا وكأنه لم يتجاوز شأن الشاب الهزيل، فسرعان ما بات وسط غبار الفحم. ولم يخرج منها إلا ببطء شديد. ثم فتح جو الباب ليلتقط شقيقتي التي سقطت فاقدة الوعي، فحملها إلى البيت وسجاها على الفراش.

صعدت إلى غرفتي لأرتدي ثياب العطلة، وحين نزلت ثانية، وجدت أورليك وجو يتشاركان وعاء من البيرة بمودة ومحبة.

حين وصلت إلى المدينة للقيام بزيارتي مررت ببوابة منزل الآنسة هافيشام مرات عدة قبل أن أصمم على قرع الجرس.

في داخل المنزل، وجدت كل شيء على حاله، باستثناء الآنسة هافيشام التي كانت بمفردها. فقالت: «حسناً؟ آمل ألا تريد شيئاً. فإنك لن تحصل على شيء».

«في الحقيقة كلا يا آنسة هافيشام. أردت فقط أن تعلمي أنني أحقق تقدماً في تدربي المهني، وأنني ممتن لك على الدوام».

فقالت: «حسناً، حسناً». وهي تشير بأصابعها الهرمة المتعبة». تعالَ من وقت لآخر. تعالَ يوم ميلادك أجل! «ثم صاحت فجأة وهي تستدير بكرسيها نحوي :» أنت تبحث عن استيلا؟ إيه؟».

في الواقع كنت أبحث عن استيلا، فتلعثمت بالقول إني آمل أن تكون بخير.

فقالت الآنسة هافيشام: «إنها في الخارج، في مدرسة جيدة، بعيدة عن المتناول؛ وهي أجمل بكثير من السابق، وتحظى بإعجاب جميع من يرونها. هل تشعر بفقدانك لها؟».

كنت مرتبكاً بما علي قوله، لكن الآنسة هافيشام أنقذتني من مشقة العثور على جواب بأن صرفتني. وحين أُغلقت البوابة خلفي، شعرت بالاستياء أكثر تجاه مهنتي ومنزلي وكل شيء. وكان هذا كل ما حصلت عليه بذهابي إلى منزل الآنسة هافيشام.

التقيت السيد ووبسيل في المدينة، فذهبت معه لرؤية العم بامبلتشوك. كان الليل شديد الظلمة حين سرنا عائدين إلى البيت. خلف المدينة، كنا نسير في ضباب رطب كثيف حين صادفنا رجلاً بدا وكأنه في انتظارنا. إنه أورليك. أخبرنا أن بعض المجرمين لا ريب قد فروا من سفينة الاعتقال، إذ كان يسمع طلقات نارية منذ هبوط الظلام.

في طريقنا إلى القرية، علمنا عند «النوتيَّة الثلاث» أن منزلنا قد تعرض للاقتحام أثناء غياب جو وأن هناك من تعرض للهجوم والإصابة.

هرعنا إلى البيت بأقصى سرعتنا، فوجدنا المطبخ يعج بالناس. كان هناك جراح، كما كان جو ومجموعة من النساء، والجميع على الأرض في وسط المطبخ. فتراجعوا عندما رأوني، ورأيت شقيقتي مرتمية على الأرض فاقدة الوعي إذ تلقت ضربة على رأسها من قبل مجهول.

لم يُسرق شيء من أي مكان من المنزل. ولا كانت في المطبخ آثار فوضى، باستثناء ما تسببته شقيقتي من جراء السقوط والنزف. إنما كان هناك دليل بارز وهو أنها تلقت الضرب على رأسها وعظام ظهرها بشيء ثقيل وغليظ. وكان بجانبها على الأرض قيد حديدي لمجرم قطعه بالمبرد.

فظننت أن القيد الحديدي يخص المجرم صاحبي، القيد الذي رأيته وسمعته فيما كان يعمل على قطعه بالمبرد في المستنقعات

لكن عقلي لم يتهمه باستخدامه للغاية تلك. فشككت في أورليك.

ومما أثار مخاوفي كان التصور بأنني قدمت السلاح، إنما تعذر عليَّ التفكير بغير ذلك. وعانيت من مأزق رهيب فيما أخذت أفكر إن كان علي أن أبوح بسر طفولتي، وأخبر جو القصة كاملة. فقررت أن أقدم اعترافاً كاملاً حين تسنح الفرصة للمساعدة في اكتشاف هوية المهاجم.

بقي رجال الشرطة حول المنزل منذ أسبوع أو اثنين، وألقوا القبض على عدة أشخاص بريئين. لكنهم لم يقبضوا على المجرم أبداً.

بعد أن رحلوا بفترة طويلة، كانت شقيقتي طريحة الفراش وقد اشتد عليها المرض. فقد اختل بصرها، وتضرر سمعها وذاكرتها كثيراً، وغدا كلامها غير مفهوم. وحين شفيت في النهاية بحيث أصبحت تستطيع هبوط الدرج بمساعدتنا. كان من الضروري إبقاء لوحي الحجري إلى جانبها، لتشير بالكتابة إلى ما تعجز عن الإشارة إليه بالكلام.

لكن مزاجها تحسن كثيراً، وتحلت بالصبر. وقد احترنا في العثور على مرافقة لها، إلى أن وُفقت عمة والد السيد ووبسيل، فانتقلت "بيدي" للعيش معنا. وكانت نعمة للأسرة، وخاصة لجو. فتولت مباشرة رعاية شقيقتي وكأنها درست طباعها منذ الطفولة، وصار بإمكان جو التمتع بحياة أهدأ، والذهاب إلى «النوتية الثلاث» من وقت إلى آخر، على سبيل التغيير الذي أفاده كثيراً.

الفصل الثاني عشر
الفتاة اللطيفة

بدأت تدريجياً أشعر بتغيير في بيدي. كان شعرها لامعاً، ناعم الملمس، ويداها نظيفتين دائماً. ليست جميلة بل عادية، ولا يسعها أن تكون مثل استيلا، إنما كانت صاحبة لطف وحكمة وروح طيبة. وقد تدبرت شؤون كافة منزلنا بشكل رائع، كذلك فقد تعلمت كل ما تعلمته وظلت تواكبني على الدوام.

بعد ظهر يوم أحد، خرجنا نتمشى معاً في منطقة المستنقعات. وحين بلغنا ضفة النهر وجلسنا إلى الضفة فيما المياه تترقرق عند أقدامنا، قررت أن الزمان والمكان مناسبان لمنح الثقة إلى بيدي. فقلت لها، بعد أن وعدت بحفظ السر: «أود أن أكون سيداً يا بيدي».

أجابت: «لن أفعل ذلك إن كنت مكانك! لا أعتقد أن ذلك يفيد؛ ألا ترى أنك أكثر سعادة كما أنت الآن؟».

فقلت بتبرم: «لست سعيداً أبداً يا بيدي كما أنا. فقد نالني الاشمئزاز من مهنتي. ولن أرتاح إلا عندما أعيش حياة تختلف عن

قالت بيدي وهي تهز رأسها أسفاً: «إنه لأمر مؤسف!».

ثم أخبرتها عن استيلا وكيف تعتبرني خشناً وعامياً، وأنها تفوق الجميع جمالاً، وكيف أنني شديد الإعجاب بها، وأريد أن أكون سيداً من أجلها.

«هل تريد أن تكون سيداً لمضايقتها أم للفوز بها؟ فإن كنت تريد مضايقتها، فالأفضل عدم الاكتراث لكلماتها. وإن كان القصد هو الفوز بها، فاعتقادي هو أنها لا تستحق ذلك».

قلت لبيدي: «ربما كان ذلك صحيحاً، لكنني في غاية الإعجاب بها».

كانت بيدي أكثر الفتيات حكمة وتعقلاً، فلم تحاول النقاش معي أكثر، بل ربتت على كتفي بمواساة وقالت: «إنني سعيدة لأنك شعرت بأن بإمكانك أن تمنحني ثقتك يا بيب».

فصحت قائلاً وأنا أنهض: «بيدي، سأخبرك دائماً بكل شيء».

فقالت بيدي: «إلى أن تصبح سيداً؟».

تابعنا السير قليلاً، ورحت أفكر إن كنت في وضع مناسب ومأمون أكثر مما لوكنت ألعب لعبة المتسول في الغرفة المظلمة ذات الساعات المتوقفة، حيث أتعرض للتحقير من استيلا. وتساءلت إن كنت على يقين لو كانت استيلا بجانبي في تلك اللحظة بدلاً من بيدي، إن كانت ستجعلني تعيساً. وكان لابد لي من الإقرار بأنني لم أكن متأكداً من ذلك، فقلت لنفسي: «تباً لك من أحمق يا بيب».

تحدثنا كثيراً أثناء السير، وبدا كل ما قالته بيدي صحيحاً. لم تجرح بيدي مزاجي ولم تكن متقلبة المزاج، بل كانت تتألم لمجرد التسبب بإيلامي، وتفضل كثيراً أن تجرح فؤادها بدلاً من فؤادي.

فكيف لي ألا أحبها أكثر؟ قلت لها ونحن في طريق العودة للمنزل: «حبذا لو تستطيعين تقويمي يا بيدي».

قالت: «ليتني أستطيع ذلك».

«حبذا لو أستطيع فقط إيقاع نفسي في حبك هل تمانعين أن أتحدث بهذه الصراحة لصديقة أِلفتها»؟

قالت بيدي: «كلا يا عزيزي، أبداً لا تكترث لي».

«حبذا لو أستطيع حمل نفسي على ذلك، إنه القضية لدي».

قالت: «لكنك لن تفعل».

التقينا بأورليك قرب باحة الكنيسة، فهمدر هذا قائلاً: «مرحباً، إلى أين ذاهبان؟».

«أين ينبغي أن نذهب سوى إلى المنزل؟».

فقال: «حسناً، سأرافقكما إلى المنزل».

عارضت بيدي بشدة ذهابه معنا، فهمست لي تقول: «لا تدعه يأتي؛ فأنا لا أحبه». وبما أنني لم أكن أحبه كذلك، قلت له إننا نشكره لكننا لا نريد الذهاب إلى المنزل. تلقى النبأ بصيحة ضاحكة، وتخلف عنا، لكنه راح يتبعنا بتكاسل على بعد خطوات قليلة. سألت بيدي لماذا لا تحبه فأجابت: «أوه، لأنني لأنني أخشى أنه يحبني».

سألتها بغضب: «وهل أخبرك بأنه يحبك؟».

فقالت وهي تسترق النظر من فوق كتفيها: «كلا! لم يخبرني أبداً بذلك، لكنه يلقي عليّ نظرة كلما استطاع جذب بصري».

استشطت غضباً إزاء جرأة أورليك العجوز على الإعجاب بها، بلغ غيظي حداً وكأن ذلك إهانة لي. ومنذ تلك الليلة أخذت أراقبه بحذر.

الفصل الثالث عشر
الآمال الكبيرة

كانت السنة الرابعة من تدريبي المهني لدى جو، وكانت ليلة السبت حيث كنا متحلقين حول المدفأة في حانة «النوتية الثلاث» نصغي إلى السيد ووبسيل وهو يقرأ بصوت مرتفع.

لم ألاحظ إلا بعدما انتهى من القراءة، أن هناك سيداً غريباً ينحني فوق ظهر الكرسي المقابل لي. فتقدم وقال وهو ينظر إلي: «لدي ما يحملني على الاعتقاد بأن هناك حداداً بينكم، اسمه جوزيف، أو جو غارجري. أيكم ذاك الرجل؟».

قال جو: «هذا أنا». تابع الغريب يقول: «هل لديك من يتدرب على مهنتك، يعرف عامة باسم بيب؟ وهل هو هنا؟».

فهتفت قائلاً: «إنني هنا».

لاحظت أن رأسه ضخم، وبشرته داكنة وعينيه غائرتان وحاجبيه كثيفان أسودان. قال ليّ: «أود إجراء حديث خاص معكما. لعل من الأفضل أن نذهب إلى منزلكما».

سرنا إلى المنزل في صمت يكتنفه التساؤل، وحين وصلنا إلى هناك دخلنا غرفة الاستقبال، فجلس الغريب إلى الطاولة وهو يجذب الشمعة إليه ويدقق في دفتر صغير لديه، ثم قال: «اسمي جاغرز، وأنا محامٍ من لندن. لدي مهمة استثنائية أنجزها معكما. والآن يا سيد جوزيف غارجري، إنني أنقل عرضاً يعفيك من هذا الصغير، تلميذك. لا أظن أنك ستعارض تخلية سبيله. بناء على طلبه وخدمة لمصلحته أو تبتغي شيئاً مقابل ذلك؟».

فقال جو: «لن أرغب في الوقوف في وجه بيب، ولا أريد شيئاً لقاء تخلية سبيله».

قال السيد جاغرز: «حسناً، والآن، ما أريد أن أقوله لك هو أن بيب لديه آمال كبيرة».

أخذت علينا الدهشة أنا وجو، ونظرنا إلى بعضنا البعض.

«إنني مكلف بإبلاغه بأنه سيحصل على ممتلكات لا بأس بها، وأن رغبة المالك الحالي هي أن يُنقل بيب من هذا المكان، في حال أن ينشأ على تربية تليق بذوي الشأن».

لقد تحقق حلمي، وتجاوزت الحقيقة مخيلتي الجامحة.

فالآنسة هافيشام ستكوّن ثروتي.. تابع المحامي يقول: «والآن سيد بيب، سأوجه إليك ما بقي عليَّ قوله. ليكن واضحاً لديك أولاً أنه بناء على الطلب الذي تلقيت منه تعليماتي، أنك ستحمل دائماً اسم بيب. وليكن في علمك ثانياً أن اسم الذي أحسن إليك سيبقى سراً، إلى أن يقرر هو البوح بذلك. ويحظر عليك الاستقصاء عن هذا الأمر، أو الإشارة إلى أي شخص أثناء الاتصالات التي تجري بيننا. إن كان لديك اعتراض على هذين الشرطين، فالآن هو الوقت المناسب للإفصاح عن ذلك. قل بصراحة».

تلعثمت بصعوبة قائلاً أن لا اعتراض لديَّ، فتابع السيد جاغرز: «لا أظن ذلك! والآن سيد بيب، ننتقل بعد ذلك إلى تفاصيل الترتيبات. لديَّ مبلغ من المال يكفي تعليمك ومصاريفك. أرجو أن تعتبرني وصياً لك. من المفروض أن تتعلم بشكل أفضل، تماشياً مع وضعك الجديد».

فقلت إنني طالما تشوقت لذلك.

فاقترح السيد جاغرز اسم السيد ماثيو بوكيت الذي سبق أن سمعت الآنسة هافيشام تقول إنه أحد أقربائها أن يكون معلمي، فعبرت عن شكري للسيد جاغرز على هذا الاختيار، وقلت إنني سأجرب هذا السيد بكل سرور.

«حسناً، من الأفضل أن تجربه في منزله، ستمهد الطريق أمامك، ويمكنك أولاً أن ترى ابنه، الذي في لندن. متى ستأتي إلى لندن؟».

قلت وأنا أنظر إلى جو الذي كان يقف محدقاً دون حراك، إنني أعتقد أن باستطاعتي الذهاب فوراً.

«لا بد أولاً أن تكون لك ثياب جديدة تذهب بها، لنقل بعد أسبوع. ستحتاج إلى بعض المال. هل أترك لك عشرين جنيهاً؟».

تناول محفظة طويلة وراح يعد المال على الطاولة ثم دفع بها إليَّ. ثم جلس يؤرجح محفظته وهو يراقب جو.

«جوزيف غارجري، تبدو في غاية الدهشة فعلاً».

فقال جو بلهجة حازمة: «فعلاً».

«تذكر أن الاتفاق كان على أنك لا تريد شيئاً لنفسك. لكن ماذا لو كان من ضمن التعليمات لديّ أن أقدم لك هدية على سبيل التعويض؟».

فاستوضح جو قائلاً: «تعويض على ماذا»؟

«على خسارة خدماته».

وضع جو يده على كتفي برفق وقال: «إنني أرحب بانطلاقة بيب نحو العزة والثراء. إن كنت تعتقد أن المال يمكنه التعويض عن خسارتي لهذا الطفل الصغير الذي أتي إلى دكاني، وكنت معه من أفضل الأصدقاء». ولم يستطع قول المزيد.

فقال السيد جاغرز: «والآن يا جوزيف غارجري، أنبهك إلى أنها فرصتك الأخيرة. فلا حلول وسط معي. فإن أردت أخذ الهدية التي أُذن لي بتقديمها لك، قل بصراحة وستحصل عليها. أما إن كنت تريد القول «وهنا لدهشته الشديدة، توقف عن الكلام لدى تهيؤ جو لقتاله. فقال المحامي: «حسناً سيد بيب، أعتقد أنه كلما أسرعت بمغادرة المكان نظراً إلى أنك ستصبح سيداً لكان ذلك أفضل. ليكن في الأسبوع المقبل، وسوف يصلك في غضون ذلك عنواني مطبوعاً. فيمكنك أن تستقل عربة لدى مكتب عربات السفر في لندن، وتأتي إليّ مباشرة».

عندما غادرنا، أقفل جو الباب الأمامي، وجلسنا بقرب نار المطبخ، نحدق بإمعان في الفحم المشتعل، ولم نقل شيئاً لفترة طويلة.

كانت شقيقتي في مقعدها الوثير، وبيدي تجلس إلى جانب جو تقوم بأشغال الإبرة، بينما كنت جالساً إلى الجانب الآخر منه. قلت في النهاية: «جو، هل أخبرت بيدي؟».

«تركت الأمر لك يا بيب».

«أفضل لو تخبرها أنت يا جو».

فقال جو: «لقد أصبح بيب سيداً غنياً، ليباركه الله في ثروته».

أوقفت بيدي عملها وراحت تنظر إليّ. أمسك جو بركبتيه وراح ينظر إليّ أيضاً. اطلعت إليهما، وبعد لحظة توقف، هنآني بحرارة،

لكن مسحة حزن كانت في تهنئتهما، وأثارت لديّ بعض الامتعاض.

حاولت بيدي أن تنقل لشقيقتي فكرة عما جرى لها، لكن جهودها باءت بالفشل.

بعد يومين، ارتديت أفضل ملابسي، وذهبت إلى المدينة باكراً قدر المستطاع على أمل أن أجد المحلات مفتوحة، فقمت أولاً بزيارة محل الخياط، حيث أخذ قياسي لخياطة بعض الثياب الجديدة، وتوجهت إثر ذلك إلى صانع القبعات وصانع الأحذية ومحلات أخرى... ثم ذهبت إلى السيد بامبلتشوك، وقد سبق له أن زار دكان جو وسمع الأخبار، فأعد وجبة خفيفة على شرفي. تلقاني بكلتا يديه ورحب بي بحفاوة وكأننا كنا أفضل الأصدقاء. فقال بعد أن نظر إليّ بإعجاب لبضع دقائق: «إن مجرد التفكير بأنني كنت الوسيلة المتواضعة التي أدت إلى هذا،لهو مكافأة عظيمة».

رجوت السيد بامبلتشوك أن لا يغيب عن باله أن شيئاً لا ينبغي قوله أو التلميح به في هذه الخصوص.

دعاني السيد بامبلتشوك لتناول الدجاج، وأفضل شرائح اللسانات، والنبيذ. وراح يصافحني مراراً وتكراراً. وأفضى إليّ، للمرة الأولى في حياتي، أنه لطالما تحدث عني قائلاً: «إنه ليس بالفتى العادي، استمعوا جيداً، إن قدره لن يكون قدراً عادياً».

استأذنت في النهاية مغادراً وعدت إلى المنزل.

مرت الأيام، وفي صباح الجمعة ذهبت ثانية إلى السيد بامبلتشوك لارتداء ملابسي الجديدة والقيام بزيارة الآنسة هافيشام. فتحت سارة بوكيت الباب لي واصطحبتني إلى الطابق الأعلى. كانت الآنسة هافيشام تقوم ببعض التمارين في الغرفة قرب الطاولة الطويلة، وهي تتكئ على عصاها فقالت: «سأغادر إلى لندن غداً،

آنسة هافيشام. وأظن أن لا مانع لديك على مغادرتي».

فقالت وهي تدير عصاها حولي، وكأنها العرابة الجنية التي بدلت حالي، تمنحني الهبة الأخيرة: «إن مظهرك أنيق».

تمتمت قائلاً: «حظيت بثروة وافرة منذ رأيتك آخر مرة آنسة هافيشام، وإنني في غاية الامتنان لذلك، آنسة هافيشام».

قالت وهي تنظر باغتباط إلى سارة بوكيت الحسودة: «أجل، أجل، لقد رأيت السيد جاغرز، وعلمت بالأمر يا بيب. إذن أنت ذاهب غداً؟».

«أجل، آنسة هافيشام».

«وهل تبناك رجل ثري؟».

«أجل، آنسة هافيشام».

«ألم يذكر اسمه؟».

«كلا، آنسة هافيشام».

«وهل عين السيد جاغرز وصياً عليك؟».

«أجل، آنسة هافيشام».

وتابعت تقول: «حسناً! أمامك مستقبل يبشر بالخير، كن صالحاً واعمل على أن تستحق ذلك واتبع إرشادات السيد جاغرز».

ثم نظرت إليّ ونظرت إلى سارة، وقد أثار هدوء سارة ابتسامة قاسية على وجهها المؤرق.

«وداعاً يا بيب تعلم أن عليك الاحتفاظ دائماً باسم بيب».

«أجل، آنسة هافيشام».

«وداعاً يا بيب».

مدت يدها، فانحنيت على ركبتي ولثمتها بشفتي، ثم غادرتها. رجعت إلى بامبلتشوك وخلعت ثيابي الجديدة، ثم لففتها في رزمة، وعدت إلى المنزل في ملابسي القديمة، وأنا أشعر في الحقيقة

بمزيد من الارتياح، رغم أن لديَّ الرزمة أحملها.

وها هي الأيام الستة التي كان ينبغي أن تمر ببطء، ولت بسرعة وذهبت، وراح الغد يواجهني بحزم لم أستطع مواجهته به. كان عليَّ مغادرة قريتنا في الخامسة صباحاً، وكنت قد أخبرت جو أنني أرغب في الرحيل وحدي. طوال الليل، كانت العربات تمر في نومي المتقطع، تضل سبيلها بدلاً من التوجه إلى لندن، تجرها الكلاب مرة والقطط مرة أخرى والرجال مرة ثالثة، لكن دون أن تجرها الخيول أبداً. تملكتني رحلات فشل غريبة إلى أن بزغ الفجر وراحت الطيور تغرد. فنهضت وارتديت ملابسي، لكنني كنت أفتقر إلى العزيمة للهبوط، إلى أن نادتني بيدي تقول إنني تأخرت.

كان الإفطار سريعاً من دون نكهة. ثم قبلت شقيقتي وبيدي وعانقت جو. ثم تناولت حقيبتي الصغيرة وخرجت.

انطلقت بخطوات سريعة معتبراً أن من السهل الرحيل أكثر مما تصورت. وأخذت أصفِّر لأجعل من الرحيل غير ذي شأن. لكن القرية كانت في غاية الوداعة والهدوء، وكنت بريئاً وصغيراً للغاية هناك، بينما كان كل شيء مجهولاً وعظيماً حتى إنني انفجرت بالبكاء في تلك اللحظة. حدث ذلك عند عمود الاتجاه في طرف القرية، فوضعت يدي عليه وقلت: «وداعاً يا صديقي العزيز الغالي».

الفصل الرابع عشر
السيد بوكيت الابن

استغرقت الرحلة من المدينة إلى العاصمة نحو خمس ساعات، وعندما وصلت إلى مكتب السيد جاغرز، أخبرني الكاتب أنه في المحكمة، وأنه ترك خبراً بأن أنتظر في غرفته. فاصطحبني إلى غرفة داخلية. وبعد انتظار طويل وصل السيد جاغرز.

اندفع نحوه الكثير من الناس، رجالاً ونساءً، كانوا ينتظرونه خارج المكتب. فخاطب اثنين من الرجال وهو يشير إليهما بأصبعه: «ليس لدي ما أقوله لكما الآن. ولا أريد أن أعرف أكثر مما أعرفه. أما بالنسبة للنتيجة، فهي مسألة حظ. لقد أخبرتكما منذ البداية أنها مسألة حظ. هل دفعتما لويميك؟».

فقال الاثنان معاً: «أجل، سيدي».

«حسناً، يمكنكما الذهاب. والآن لن أسمع المزيد»!

وأشاح لهما بيده لدفعهما خلفه: «إن نطقتما بكلمة سأتخلى عن القضية».

بدأ أحد الرجلين يقول وهو يخلع قبعته: «اعتقدنا، سيد جاغرز».

فقال جاغرز: «هذا ما طلبت إليكما الامتناع عنه. اعتقدتم! أنا الذي أعتقد أنكما، هذا يكفي. إن احتجت لكما، فأنا أعرف أني أجدكما. لا أريدكما أن تجداني، والآن لن أسمع المزيد، لن أسمع أي كلمة».

راح الرجلان ينظران إلى بعضهما البعض بينما أشار السيد جاغرز إليهما بالخروج، فخرجا بتواضع دون أن ينطقا بكلمة.

وبعد أن تعامل مع الآخرين بالأسلوب نفسه، اصطحبني أنا وصبي إلى غرفته الخاصة، حيث أخبرني أنه عليّ أن أذهب إلى «نزل برنارد» إلى جناح السيد بوكيت الابن، حيث تم إرسال سرير لتأمين راحتي. وكان عليّ البقاء مع السيد بوكيت الابن حتى نهار الاثنين، فأذهب معه نهار الاثنين لزيارة منزل والده، لأتبين كم سيروقني. قدم لي مخصصي من المال، وبطاقات بعض أصحاب المتاجر الذين سأتعامل معهم للحصول على جميع أنواع الملابس وسائر الأشياء التي قد أحتاجها. وكان على ويميك كاتبه، مرافقتي إلى منزل السيد بوكيت.

ألقيت نظرة على السيد ويميك أثناء سيرنا، فوجدته رجلاً جافاً، قصيراً للغاية، ووجهه مربع جامد. تراءى لي أن أعزب بثيابه الرثة. وكانت له عينان لامعتان صغيرتان وحادتان، وسوداوان وشفتان رقيقتان واسعتان.

خاطبني قائلاً: «إذن لم تأتِ إلى لندن أبداً من قبل».

قلت: «كلا، وهل هي مكان سيئ؟».

قال: «قد تتعرض للخداع والسرقة والقتل في لندن. إنما هناك الكثير من الناس في كل مكان يتسببون لك بذلك».

وما لبثنا أن وصلنا إلى نزل برنارد، حيث يقطن السيد هربرت

بوكيت. كان مجموعة من المساكن الوضيعة المغمة قسمت شققاً، وكان كثير منها برسم الإيجار.

اصطحبني السيد ويميك فتسلقنا سلماً يؤدي إلى شقة في الطابق الأعلى. وقد كُتب على الباب «السيد بوكيت الابن»، وضعت رقعة على صندوق الرسائل تقول: «عائد بعد قليل». تمنى السيد ويميك لي نهاراً سعيداً وغادرني. ولم يمضِ أكثر من نصف ساعة طويلة حتى سمعت وقع قدمي السيد هربرت على السلم. كان يحمل كيساً من ورق تحت كل إبط وسلة صغيرة من الفاكهة في إحدى يديه، وقد انقطع نفسه. قال: «السيد بيب؟».

فقلت: «السيد بوكيت؟».

قال مندهشاً: «يا إلهي! إنني آسف جداً، لكنني علمت أن هناك عربة قادمة من بلدك في منتصف النهار، فاعتبرت أنك ستأتي بها».

وبعد جهود في معالجة الباب، انفتح أخيراً ودخلنا. فقال السيد بوكيت بعد ذلك: «اعتبر والدي أنك ربما أحببت قضاء نهار الأحد معي أكثر من قضائه معه، وربما أحببت التجول في أرجاء لندن. إن من دواعي سروري لا ريب أن أطلعك على لندن. إن مسكننا ليس فاخراً بأي حال، إن عليّ أن أكسب قوتي. هذه هي غرفة نومك، وقد تم استئجار الأثاث لهذه المناسبة، لكنني على ثقة بأنه سيفي بالغرض».

حين وقفت أمام السيد بوكيت الابن، أصيب بدهشة وقال وهو يتراجع: «يا إلهي، إنك الفتى الذي تقاتلت معه!».

فقلت: «وأنت الشاب الهزيل!».

وقفنا ننظر إلى بعضنا البعض حتى انفجرنا بالضحك. فقال: «تصور كونه أنت!».

فقلت: «تصور كونه أنت!».

قال هربرت: «لم تكن قد حظيت بثروتك حينذاك؟».

قلت: «كلا».

فوافق معي: «كلا، لقد علمت أن ذلك حدث لاحقاً. أنا شخصياً كنت أفتش عن ثروة جيدة آنذاك. وأرسلت الآنسة هافيشام في طلبي لترى إن كانت ستحبني. لكنها لم تستطع على كل حال، فلم تفعل. ربما لو كنت ناجحاً، لتمت خطبتي على استيلا».

«وكيف تحملت خيبة أملك؟».

فقال: «أفٍ! لم أكترث كثيراً بذلك. فهي فتاة متقلبة المزاج. إنها قاسية ومتعجرفة ومزاجية حتى آخر الحدود، وقد أنشأتها الآنسة هافيشام لتثأر من جنس الرجال».

«وما قرابتها بالآنسة هافيشام؟».

قال: «ليست بقريبتها بل تبنتها فقط».

«ولماذا تثأر من جنس الرجال؟ وأي ثأر؟».

فقال: «عجباً يا سيد بيب، ألا تعرف؟».

«كلا».

«يا للعجب! إنها قصة حقاً، وسأحتفظ بها إلى حين وقت الغداء».

تميز هربرت بوكيت بأسلوب صريح وبسيط وجذاب للغاية. لم يتسنى لي حتى الآن اللقاء بمن يعبر لي بشكل جازم أكثر منه، في كل نظرة ونبرة صوت، عن عجزه على القيام بما هو سري ودنيء. كان لديه شيء يوحي بالأمل بشكل مدهش، وشيء يهمس لي في الوقت ذاته أنه لن يكون ناجحاً و ثرياً على الإطلاق.

أخبرته بقصتي، وشددت على أنه محظور عليَّ السؤال عن هوية الذي أحسن إليَّ.

في وقت الغداء، روى لي قصة الآنسة هافيشام فقال: «كانت الآنسة هافيشام طفلة مدللة، وقد توفيت والدتها وهي لا تزال صغيرة، فلم يرد لها والدها أي طلب. كان السيد هافيشام في غاية الثراء وغاية التكبر. وكذلك كانت ابنته، لم تكن طفلته الوحيدة، بل كان لها أخ من والدها. فقد تزوج والدها مرة ثانية من طاهية على ما أعتقد. «خلته متكبراً».

«وكذلك كان. لقد تزوج من زوجته الثانية سراً، وقد توفيت هذه بعد فترة. حينما توفيت، أخبر ابنته بما فعل، وأصبح ولده مذّاك جزءاً من العائلة يسكن البيت الذي تعرفه. ولما شب الفتى، أصبح فاسقاً ومبذراً فاسداً بالإجمال. في نهاية الأمر حرمه والده من الإرث، ولكنه ما لبث أن لان حين شارف على الموت، فترك له ثروة حسنة، لكن ليس بالقدر الذي تركه للآنسة هافيشام.

وراح يبذر ماله ورزح تحت ديون طائلة. ثم ظهر رجل تظاهر بحب الآنسة هافيشام، وأخذ يلاحقها عن كثب، فأحبته كثيراً. فاستغل عاطفتها وحصل منها على أموال ضخمة. كان أقرباءها فقراء ماكرين، باستثناء والدي الذي كان في فقر شديد لكنه لم يكن حسوداً ومستغلاً للظروف أو حسوداً. كان المستقل الوحيد بينهم، فحذرها من أنها تجاوزت حدودها في سبيل ذالك الرجل، وأنها تضع نفسها تحت رحمته دون تحفظ. فاغتنمت أول فرصة تسنت لها لطرد والدي بغضب من المنزل، بحضور الرجل، ولم يرها والدي منذ ذلك الحين. لنعد إلى الرجل وننهي قصته. حدد موعد الزفاف، ووجهت الدعوة إلى ضيوف الزفاف. وحل يوم الزفاف، لكن العريس لم يحضر. بل كتب رسالة»، تلقتها حين كانت ترتدي ثياب الزفاف؟ عند التاسعة إلا ثلثاً؟».

قال هربرت: «في تلك الساعة والدقيقة بالذات». وهو يهز رأسه، وهو الوقت الذي أوقفت فيه جميع الساعات بعد. ولما شفيت من مرض شديد ألم بها، تركت المكان يستحيل خراباً، مثلما رأيت، ولم تعد ترى ضوء النهار منذ ذلك الحين».

سألت بعد شيء من التفكير: «هل هذه كل القصة؟».

«هذا كل ما أعرفه عنها. لكنني نسيت شيئاً. فهناك اعتقاد بأن الرجل الذي منحته ثقة لا يستحقها، كان يعمل طوال الوقت بالاتفاق مع أخيها من أبيها، وأن المؤامرة هي من تدبير الاثنين، وأنهما كانا يتقاسمان الربح».

فقلت: «أتساءل لماذا لم يتزوجها ويحصل على جميع ممتلكاتها؟».

«ربما كان متزوجاً من قبل».

«وماذا حل بالرجلين؟».

«غرقا في مزيد من الذل والعار والخراب إن كان هناك أكثر».

«وهل هما على قيد الحياة الآن؟».

«لست أدري. تعلم الآن كل ما أعرفه عن الآنسة هافيشام».

سألت هربرت في مجرى الحديث عما يكون. فأخبرني أنه رأسمالي يعمل في تأمين السفن لكن لم تكن في غرفته إشارة تدل على قضايا الشحن أو رأس المال. قال: «لن أقنع بمجرد استخدام رأسمالي في تأمين السفن. سأشتري حصصاً لا بأس بها في مجال التأمين على الحياة، وسأعمل قليلاً في مجال التعدين. أظن أنني سأتاجر مع جزر الهند الشرقية في الحرائر والشالات والبهارات والأصباغ والعقاقير والأخشاب الثمينة. إنها تجارة شيقة.

«قلت: «وهل الأرباح كبيرة؟».

قال: «هائلة». ثم قال وهو يضع إبهامه في جيب صدرته: «أظن

أنني سأتاجر أيضاً مع جزر الهند الغربية في السكر والتبغ وسراب الرم، كذلك في سيلان خاصة في مجال أنياب الفيلة».

«ستحتاج إلى سفن كثيرة».

«أسطول كامل».

ولشدة دهشتي حيال ضخامة هذه العمليات، سألته أين تبحر السفن التي يؤمن عليها في الوقت الحاضر، فأجاب: «لم أبدأ بالتأمين بعد. فأنا أنتبه لنفسي، وأعمل في مكتب للمحاسبة».

«وهل مكتب المحاسبة يوفر ربحاً؟».

«آه، كلا، ليس لي. إنه لا يوفر لي شيئاً، وعلي الاستمرار، المهم هو أن تنتبه لنفسك. ذلك هو الشيء الأهم. ثم يحين الوقت فتجد المجال مفتوحاً أمامك. فتدخله وتبني رأسمالك ،وها أنت! وحين تبني رأس مالك، لن يكون عليك سوى توظيفه».

كان ذلك أشبه ما يكون بأسلوبه في القتال الذي جرى بيننا في الحديقة، يشبهه كثيراً وطريقته في تحمل الفقر أيضاً جاءت توازي طريقته في تحمل الهزيمة. كان واضحاً أنه لا يملك سوى أبسط الضروريات، إذ كل ما رأيته تبين أنه أرسل على حسابي من المقهى أو من مكان آخر.

ذهبنا مساء ذلك السبت للتنزه في شوارع لندن، وذهبنا إلى المصنع بنصف التعرفة، وفي اليوم التالي ذهبنا إلى الكنيسة في وستمينستر آبي، وتمشينا مساءً في المتنزهات.

بعد ظهر الاثنين، ذهبنا إلى منزل السيد بوكيت في هامر سميث حيث تم تقديمي للسيد والسيدة بوكيت في حديقتهما. واصطحبني السيد بوكيت بعد ذلك إلى المنزل وأراني غرفتي. ثم قرع باب غرفتين مماثلتين ليعرفني إلى من يشغلهما، باسم بنتلي

درامل وستارتوب، كان درامل ذا بنية ثقيلة ومظهر عجائزي وكان يصفر، بينما كان ستارتوب، الأصغر سناً ومظهراً، يقرأ ويمسك رأسه وكان يظن نفسه في خطر انفجاره بالمعرفة المفرطة.

بعد يومين أو ثلاثة، حين استقرت بي الحال في غرفتي وذهبت إلى لندن مرات عدة لطلب ما أحتاجه من أصحاب المتاجر الذين أتعامل معهم، كان لديّ مع السيد بوكيت حديث مطول. كان يعرف عن مجرى حياتي المنشود أكثر مما أعرفه بالذات، فقد ذكر أن السيد جاغرز، أخبره أنني لم أكن مقصوداً لأي مهنة، وأنه ينبغي أن أتعلم ما يكفي لأكون نظير الشاب العادي الذي ينعم بظروف ملائمة. فوافقت بالطبع، دون أن يكون لي علم بما هو عكس ذلك.

نصحني بارتياد بعض الأمكنة في لندن لأحصل على المعرفة التي أحتاج، وأفاد بأنه سيتولى إدارة جميع دروسي، لقد وضع نفسه موضع ثقتي بطريقة رائعة، ويمكنني القول في الحال إنه كان من الحماسة دائماً ومن الصدق في تنفيذ اتفاقه معي، ما حملني على الحماسة والصدق في تنفيذ اتفاقي معه، ولو أنه أبدى شيئاً من اللامبالاة كأستاذ، فليس لدي شك في أنني كنت فعلت الشيء ذاته كتلميذ.

سويت هذه الأمور وبدأت العمل بجدية، خطر لي بأنني لو استطعت استعادة غرفة نومي في نزل برنارد، لاختلفت حياتي بشكل أفضل، ولن يسبب سلوكي الإساءة إلى عشرة هربرت. لم يعارض السيد بوكيت هذا الإجراء، لكنه ألح أنه قبل اتخاذ أي خطوة، ينبغي عرضها على وصيي. وحين أفصحت عن رغبتي هذه للسيد جاغرز، وافق وأوعز إلى ويميك بأن يدفع لي عشرين جنيهاً لشراء الأثاث اللازم.

الفصل الخامس عشر
جو الطيب

صباح يوم الاثنين، تلقيت رسالة من بيدي تخبرني فيها عن عزم جو القيام بزيارتي في نزل برنارد في الصباح التالي. لم أتشوق لهذه الزيارة، ولو تسنى لي إبعاده بالمال، لفعلت ذلك لا ريب. لكنني اطمأننت حين علمت أنه سيأتي إلى مسكني في لندن وليس إلى منزل السيد بوكيت في هامر سميث. كنت أعارض بعض الشيء أن يراه هربرت أو والده، وكلاهما كنت أكن لهما الاحترام، إنما كانت لدي حساسية حادة حيال أن يراه درامل، إذ كنت أزدريه لبلادته وحمقه وتعجرفه.

نهضت في الصباح الباكر وجعلت غرفة الجلوس والمائدة تبدوان في أبهي حلة لهما. وما لبثت أن سمعت خطوات جو على السلم.

عرفت أنه جو من طريقته الخرقاء في صعود السلم فأفضل أحذيته كان كبيراً جداً على قدميه ومن الوقت الذي استغرقه في قراءة الأسماء الموجودة في الطوابق الأخرى أثناء صعوده. وفي النهاية،

طرق الباب طرقة خفيفة ودخل.

«كيف حالك يا جو؟».

«كيف حالك يا بيب؟».

«سعيد برؤيتك يا جو، أعطني قبعتك».

لكن جو أمسك بها بعناية بكلتا يديه، كأنها عش عصفور به بعض البيض، ولم يكن ليسمح بالتخلي عن ملكيته تلك. ثم قال: «لكم كبرت وسمنت وأصبحت سيداً! لا ريب أنك مدعاة اعتزاز لمليكك وبلادك».

«وأنت كذلك يا جو تبدو في أحسن أحوالك».

فقال جو: «حمداً لله. إن شقيقتك ليست أسوأ مما كانت عليه. وبيدي دائماً على ما يرام وحاضرة لتقديم المساعدة. وكذلك جميع أصدقائك. باستثناء ووبسيل الذي ترك الكنيسة وتحول إلى التمثيل».

عند ذلك دخل هربرت الغرفة، فقدمت جو إليه. مد هربرت يده، لكن جو تراجع وبقي ممسكاً بقبعته.

«خادمك سيدي. رجائي أيها السادة أن تنعما بصحة وعافية في هذا المكان. لعل الرأي في لندن هو أن المكان صالح جداً، لكنني لن أبقي على خنزير فيه شخصياً لن أفعل ذلك إن أردت له أن ينعم بصحة ويصبح سميناً».

وحين دُعي للجلوس إلى الطاولة، راح ينظر إلى الغرفة ليجد مكاناً مناسباً يضع فيه قبعته، فأسندها في النهاية عند طرف بعيد في رف الموقد، حيث راحت بعد ذلك تسقط بعد حين وآخر.

سأله هربرت الذي كان دائماً يتولى الإشراف على الإفطار: «هل تتناول الشاي أم القهوة، سيد غارجري؟».

فقال جو وقد تصلب من الرأس حتى القدمين: «شكراً سيدي. سأتناول ما يطيب لك».

«ما رأيك في القهوة؟».

أجاب جو فيما اتضح أنه لم يُعجب بالفكرة: «شكراً سيدي. بما أنك تفضلت واخترت القهوة، فلن أعاكس اختيارك. لكن ألا تجد القهوة حامية قليلاً؟».

قال هربرت وهو يصب القهوة: «إذن، تتناول الشاي».

هنا تدحرجت قبعة جو من على الموقد، فهرع من كرسيه والتقطها، ثم وضعها في المكان نفسه. أما بالنسبة إلى ياقة معطفه وياقة قميصه، فكانتا تحيران من ينظر إليهما. ترى لماذا ينبغي على المرء أن يضغط نفسه إلى هذا الحد ليتصور بأنه أنيق الملبس؟ولماذا عليه الافتراض أن الضرورة تقتضي أن يعاني بسبب ملابس العطلة؟

وما لبث جو أن غرق في نوبات من التأمل وهو يمسك بشوكته بين صحنه وفمه، ثم سعل سعالاً لافتاً للنظر وابتعد عن الطاولة، وصار يسقط أكثر مما يأكل، حتى سررت من صميم قلبي حين تركنا هربرت ليذهب إلى الوسط التجاري.

لم يكن لديّ الإحساس السليم ولا الشعور المناسب لأدرك أن ذلك كان خطئي، وأنني لو كنت أخف وطأة مع جو، لكان جو أخف وطأة معي. فشعرت بنفاد الصبر والغيظ تجاهه.

بدأ جو يقول: «بما أننا بمفردنا الآن، سيدي».

فقاطعته قائلاً: «جو، كيف تدعوني سيداً؟».

رمقني لبرهة وجيزة بنظرة توحي بما يشبه الخزي والهوان. ثم تابع يقول: «بما أننا بمفردنا الآن، سأذكر سبب زيارتي. كنت في

النزل ذات مساء حين جاء بامبلتشوك وأخبرني أن الآنسة هافيشام ترغب في محادثتي. فذهبت في اليوم التالي وقابلتها. سألتني إن كنت على اتصال معك، وحين أجبتها بأنني كنت كذلك، طلبت إليّ إعلامك بأن استيلا عادت للمنزل وأنها ستسر بلقائك. انتهى حديثي الآن يا سيدي».

وقال وهو ينهض من كرسيه: «كذلك يا بيب، أتمنى لك أن تكون في سعادة دائمة وأن تنعم بازدهار دائم نحو أرقى المراتب».

«لكنك لست ذاهباً الآن يا جو».

قال: «بلى، إنني ذاهب».

«لكنك ستعود للغداء يا جو؟».

فقال: «كلا، لن أعود».

تلاقت نظراتنا وتلاشت أصداء كلمة «سيد» من ذلك القلب الشريف حين مد لي يده مصافحاً. ثم قال: «بيب، أيها الصديق العزيز. إنني في غير منظري في هذه الملابس، وفي خارج مكاني خارج دكان الحدادة والمطبخ أو بعيداً عن المستنقعات. إنك لن تجد نصف أخطائي لو فكرت بي وأنا في ملابس العمل، أحمل المطرقة أو حتى الغليون في يدي. لن تجد نصف هذه الأخطاء بشخصي لو رغبت بلقائي، فجئت، تطل برأسك من نافذة الدكان لترى جو الحداد هناك، أمام السندان القديم، في مريوله البالي المحترق، يلازم عمله القديم. ليباركك الله، يا عزيزي بيب، ليباركك الله!».

شعرت لديه بكرامة ساذجة، فلمسني بلطف على جبهتي وخرج، وما إن تمالكت نفسي كفاية، حتى أسرعت وراءه ورحت أبحث عنه في الشوارع المجاورة، لكنه توارى عن النظر.

الفصل السادس عشر
استيلا الفاتنة

استقللت عربة بعد الظهر إلى المدينة. ووصلت إلى هناك في وقت متأخر من المساء. فنزلت في الـ «بلو بور» لتمضية الليل، ونهضت في الصباح الباكر لزيارة الآنسة هافيشام. كان الوقت ما زال باكراً على القيام بأي زيارة، فأخذت أتسكع في المدينة وأنا أفكر في مولاتي وأرسم صوراً رائعة لخططها التي تضعها من أجلي. لقد تبنت استيلا، وتبنتني أنا أيضاً، ولا بد أن تكون نيتها تربيتنا معاً. كانت تريد مني إحياء المنزل المهجور، وإدخال نور الشمس إلى الغرفة المظلمة، وإدارة الساعات وإشعال المواقد الباردة وبعبارة موجزة، القيام بالأعمال الرائعة التي يقوم بها الفارس الشاب في القصص الخيالية، وأتزوج الأميرة.

نظمت خطواتي كي أصل إلى المنزل في وقتي المعهود. وحين قرعت الجرس، فتح الباب شخص هو آخر من كنت أتوقع أن أراه هناك. «أورليك!».

«آه، سيدي الصغير، فهناك تغيرات أكثر مما لديك. لكن ادخل، ادخل. سأخالف التعليمات لو أبقيت البوابة مفتوحة».

دخلت، فأقفل البوابة وسحب المفتاح.

«كيف جئت إلى هنا»؟

فأجاب: «جئت على قدمي».

«هل أنت هنا على الدوام (أم بنية حسنة)»؟

«لا أعتقد أنني هنا بقصد الأذى، سيدي الصغير».

لم أكن متيقناً من ذلك. اتجهت إلى الممر الطويل ولقيت سارة بوكيت التي اصطحبتني إلى غرفة الآنسة هافيشام. قالت هذه: «أدخل يا بيب».

كانت تجلس في كرسيها قرب الطاولة القديمة بثوبها القديم، ويداها فوق عصاها. وكانت تجلس بالقرب منها سيدة أنيقة لم يسبق لي أن رأيتها. كررت الآنسة هافيشام تقول: «ادخل يا بيب، كيف حالك يا بيب؟ إنك تقبل يدي وكأنني ملكة، ايه؟ حسناً؟».

قلت: «بلغني، آنسة هافيشام، أنك تكرمت باستدعائي لمقابلتك، فأتيت مباشرة».

رفعت السيدة الأخرى عينيها ونظرت إليّ بغرور، فوجدت العينين هما عيني استيلا.

لكنها تغيرت كثيراً وباتت أكثر جمالاً وأنوثة بكثير، وأحرزت تقدماً رائعاً حتى بدوت وكأنني لم أتقدم بعد. وتخيل لي وأنا أنظر إليها أنني عدت ذلك الفتى العامي الخشن ثانية.

مدت لي يدها، فتمتمت كلاماً عن السرور الذي حل بي برؤيتها من جديد، وأنه طالما غمرني الشوق للقائها.

قالت الآنسة هافيشام بنظرتها الجشعة: «هل تجدها تغيرت كثيراً

يا بيب»؟

«عندما دخلت يا آنسة هافيشام ،لم يتراءَى لي شيء من الشكل أو الوجه من استيلا، لكن من المؤكد الآن بما يلفت النظر أنها... السالفة».

قاطعتني الآنسة هافيشام متسائلة: «ماذا؟ لن تقول إنها استيلا المعروفة؟».

ثم تابعت تقول: «كانت متكبرة ومهينة، وأردت الابتعاد عنها. ألا تذكر؟».

فقلت بارتباك إن ذلك كان منذ زمن بعيد، وإنني لم أعرف حينذاك أفضل منها أو مثلها. ابتسمت استيلا بهدوء تام وقالت أنها لا تشك في أنني كنت مصيباً وأنها كانت مزعجة للغاية. ثم سألتها الآنسة هافيشام: «هل تغير».؟

قالت استيلا وهي تنظر إليّ: «كثيراً جداً».

قالت الآنسة هافيشام وهي تداعب شعر استيلا: «وهل أصبح أقل خشونة وعامية؟».

ضحكت استيلا ونظرت إليّ. كانت ما زالت تعاملني معاملة الفتى، لكنها مضت في إغرائي.

وتم الاتفاق على أن أمضي بقية النهار هناك، وأعود من ثم إلى الفندق ليلاً، وإلى لندن في النهار التالي. بعد أن تحدثنا بعض الوقت، صرفتنا الآنسة هافيشام لنتمشى معاً في الحديقة المهملة. وبينما اقتربنا من المكان الذي تقاتلت فيه مع الشاب الهزيل، توقفت وقالت: «لابد أنني كنت طفلة غريبة لأختبئ وأشاهد القتال حينذاك، لكنني فعلت ذلك واستمتعت به كثيراً».

عند ذلك أخبرتها أننا الآن صديقان حميمان.

«حقا! أظن أني أذكر أنك كنت تقرأ مع والده».

قلت مكرهاً: «أجل». لأن ذلك بدا وكأنه يجعل مني صبياً.

كانت الحديقة كثيفة بشكل يحول دون السير بسهولة، وبعدما طفنا حولها مرتين أو ثلاثاً، خرجنا ثانية إلى مصنع الجعة، فذكرتها حين خرجت من البيت وأعطتني بعض اللحم والشراب، فقالت: «لا أذكر».

فقلت: «ألا تذكرين أنكِ دفعتني للبكاء؟».

قالت: «كلا». «وهي تهز برأسها وتنظر حولها».

أظن أن عدم تذكرها وعدم اكتراثها أبداً حملاني على البكاء ثانية، بيني وبين نفسي وهذا أشد البكاء إيلاماً.

قالت: «يجب عليك أن تعرف أن لا قلب ولا تعاطف ولا مشاعر. «سمحت لنفسي بأن أشك في ذلك، وقلت إنه يستحيل وجود مثل هذا الجمال من دون قلب».

قالت: «إني جادة، فإن كنا سنترك معاً كثيراً، عليك تصديق ذلك في الحال. لنتمشى حول الحديقة مرة أخرى، ثم ندخل. تعالَ! ليس عليك أن تذرف الدمع لقسوتي اليوم، بل ستعتني بي وتدعني أستند إلى كتفك».

أمسكت بفستانها الأنيق بيد، ولامست بالأخرى كتفي ونحن نسير. طفنا في الحديقة الخربة مرتين أو ثلاثاً، وبدت لناظري مزدانة بالزهور والورود.

عدنا في النهاية للمنزل حيث علمت أن وصيّي قد جاء ليقابل الآنسة هافيشام بزيارة عمل وأنه سيعود للغداء. كانت الآنسة هافيشام جالسة في كرسيها تنتظرني، وحين ذهبت استيلا لتحضير نفسها للغداء وغدونا وحدنا، التفتت نحوي وقالت بهمس:

«هل هي رشيقة وجميلة وناضجة؟ وهل أنت معجب بها؟».

«كل من يراها لابد أن يعجب بها، آنسة هافيشام».

وضعت ذراعها حول عنقي وجذبت رأسي نحو رأسها وهي تجلس في الكرسي، وقالت: «أحبها، أحبها، أحبها! كيف تعاملك».

قبل أن أتمكن من الإجابة (هذا إن تمكنت من الإجابة عن سؤال صعب كهذا) رددت قائلة: «أحبها، أحبها، أحبها! إن كانت ستستحسنك، فأحببها. إن جرحتك أحببها، إن حطمت قلبك أشلاءً، أحببها، أحببها، أحببها! اسمعني يا بيب، لقد تبنيتها لتحظى بالحب. ربيتها وعلمتها لتحظى بالحب، فأحببها، سأخبرك ما هو الحب الحقيقي، إنه التضحية العمياء، والخضوع التام والثقة والإيمان بنفسك، وبالعالم أجمع، فتمنح قلبك وروحك جميعاً إلى من تحب مثلما فعلت أنا».

بعدما قالت كلمتها الأخيرة، أطلقت صيحة جامحة، ونهضت من كرسيها ثم راحت تضرب في الهواء، كأنما تريد أن تضرب بنفسها إلى الحائط لتقع جثة هامدة. لكنها ما لبثت أن تمالكت نفسها بلمح البصر، إذ ذاك دخل السيد جاغرز الغرفة. وبعد حديث وجيز مع الآنسة هافيشام، اصطحبني للخارج لنتناول الغداء مع استيلا والآنسة سارة بوكيت. بقيت الآنسة هافيشام جالسة في كرسيها، إذ لم تكن تتناول الطعام أو الشراب مع الآخرين. أكلنا حتى الشبع، وبعد الغداء وُضعت قنينة من نبيذ البورت الأصيل أمام وصيي، ثم تركتنا السيدتان.

لم يسبق لي أن رأيت أحداً في المنزل يساوي السيد جاغرز في قدرته على التكتم. إذ ظل يحافظ على نظراته وقلما أشاح ببصره إلى وجه استيلا أثناء الغداء. وحين أصبحنا بمفردنا، جعلني أشعر

بتضايق شديد، وكان كلما رآني أوشك على سؤاله شيئاً، ينظر إليّ بينما يحمل كأسه بيده ويحرك الشراب بفمه وكأنه يطلب إليّ أخذ العلم بأن ذلك لا يجدي نفعاً لأنه لا يستطيع الإجابة.

صعدنا بعد ذلك إلى غرفة الآنسة هافيشام ولعبنا الورق.

في غضون ذلك الوقت، كانت الآنسة هافيشام قد وضعت أجمل الحلي من طاولة تزيينها على شعر استيلا وحول عنقها وذراعيها، ورأيت أن حتى وصيي راح ينظر إليها من تحت حاجبيه الكثيفين بعدما بدا جمالها أمامه.

لعبنا حتى الساعة التاسعة، ثم اتفقنا على أن يصار إلى إبلاغي مسبقاً عن مجيء استيلا إلى لندن، فأقابلها عند العربة. بعد ذلك استأذنتها بالانصراف وعدت أدراجي إلى المنزل.

في وقت متأخر من الليل، راحت كلمات الآنسة هافيشام تتردد في أذني: «أحببها، أحببها، أحببها». فعدلت فيها ورحت مخاطباً وسادتي: «أحبها، أحبها، أحبها». مئات المرات. ثم غمرني شعور بالامتنان في أنها ستكون من نصيبي، أنا الذي كنت مساعد الحداد ذات يوم. ثم تساءلت متى يا ترى ستبدأ بالإعجاب بي، ومتى ينبغي أن أوقظ القلب الذي في صدرها، وهو الآن في سبات؟.

اعتبرت تلك عواطف سامية ونبيلة. لكنني لم أتصور أبداً أن هناك من الحقارة والدناءة في ابتعادي عن جو لعلمي أنها ستحتقره. ففي اليوم السابق فقط حملني جو على البكاء، لكن دموعي ما لبثت أن جفت، فليغفر لي الله! لقد جفت بسرعة.

الفصل السابع عشر
حديث الأصدقاء

في الصباح التالي، أخبرت وصيي الذي كان يقيم معي في «البلو بور» بأنني لا أظن أن أورليك هو الشخص الملائم للعمل لدى الآنسة هافيشام، وأخبرته بما أعرفه عنه. فقال: «عظيم يا بيب، سأذهب هناك في الحال وأصرفه».

لدى عودتي إلى حانة برنارد، وجدت هربرت يتناول غداء من اللحم البارد، وكان فرحاً بلقائي مجدداً. وبعد أن بعثت الولد الخادم إلى المقهى لإحضار المزيد من الطعام، شعرت بأن عليَّ إخبار صديقي بسري ذلك المساء بالذات. بدأت حديثي قائلاً: «عزيزي هربرت، لديَّ شيء خاص جداً أخبرك به».

أجاب: «عزيزي هاندل (كان يحب تسميتي هاندل)، ستكون ثقتك محط تقديري واحترامي».

فقلت: «إنه يتعلق بي يا هربرت وبشخص آخر».

وضع هربرت رجلاً فوق أخرى وراح ينظر إلى النار وقد أمال برأسه

جانباً، وبعد أن تطلع إلى النار عبثاً لبعض الوقت، نظر إليَّ لأنني لم أتابع الكلام.

قلت وأنا أضع يدي فوق ركبته: «هربرت، أنا أحب، أنا أهيم بـ «استيلا».

أجاب هربرت بطريقة بسيطة متوقعة: «هذا صحيح، حسناً».

«حسناً يا هربرت، أهذا كل ما تقوله، حسناً؟».

فقال: «أقصد ماذا بعد، إني أعرف ذلك طبعاً».

قلت: «وكيف تعرف ذلك؟».

«كيف أعرف ذلك يا هاندل؟ أعرفه منك بالطبع».

«لم أخبرك أبداً».

«تخبرني! لم تخبرني أبداً حين تقص شعرك، إنما لديَّ الوعي لملاحظة ذلك. كنت دائماً تهيم بها، منذ عرفتك. لقد أحضرت هيامك بها وحقيبتك معاً. تخبرني! بل كنت دائماً تخبرني طيلة النهار. حين أخبرتني بقصتك كلها، فقد أعلمتني بوضوح أنك بدأت تهيم بها منذ أن رأيتها، حين كنت صغيراً جداً بالفعل».

قلت: «حسناً، إذن لم أتخلَّ عن ولعي بها. لقد عادت، وهي أكثر جمالاً وأناقة. لقد رأيتها البارحة، ولئن كنت أعبدها من قبل، فإني أعبدها أضعافاً الآن».

فقال هربرت: «فهذا من حسن حظك يا هاندل، فقد تم اختيارك وصرت نصيبها. لكن هل لديك فكرة عن وجهة نظر استيلا حول الموضوع؟».

«آه! إنها على بعد آلاف الأميال عني».

«صبراً يا عزيزي هاندل متسع من الوقت. ألديك المزيد لتقوله؟».

أجبت: «أخشى أن أقوله، ولكن قوله ليس بأسوأ من التفكير به.

أنت تدعوني إنساناً محظوظاً. طبعاً، فأنا كذلك. لم أكن بالأمس سوى مساعد حداد. ولم أفعل شيئاً لأنهض بنفسي في الحياة. بل الحظ وحده رمقني ومع ذلك، فحين أفكر في استيلا، لا يسعني أن أصف لك كم أشعر بالضعف والغموض، وكم أتعرض لمئات الصدف. إن كل آمالي تعتمد على شخص واحد، وكم هي واهية وغامضة هذه الآمال».

أجاب هربرت: «ألم تخبرني أن وصيك السيد جاغرز قد أعلمك منذ البداية أنك لم تمنح الآمال فقط؟ حتى وإن لم يخبرك بذلك، ألا تعتقد أن السيد جاغرز من بين سائر الرجال في لندن هو الذي سيحتفظ بعلاقاته المالية تجاهك، إلى أن يتأكد من مركزه؟».

قلت إنه لا يسعني الإنكار بأن هذه نقطة مهمة.

فقال هربرت: «أظن أنها نقطة مهمة، أما بالنسبة للباقي، فينبغي أن تمنح وصيك بعض الوقت، وعليه كذلك أن يمنح موكله بعض الوقت، ستبلغ الواحدة والعشرين قبل أن تعرف أين أنت، ولعلك تحصل إذ ذاك على بعض المعلومات. والآن أود إزعاجك بعض الشيء للحظة. لقد كنت أعتقد أنه لا يمكن لاستيلا أن تكون شرطاً لميراثك، إن لم يذكر وصيك ذلك. ألم يشر المحسن إليك مثلاً أن لديه بعض الأفكار بشأن زواجك؟».

«أبداً».

«إذاً يا هاندل، بما أنك لم تُخطب لها، ألا تستطيع الابتعاد عنها؟».

«لا أستطيع ذلك يا هربرت».

«ألا تستطيع الابتعاد عنها؟».

«كلا، مستحيل».

فقال هربرت: «حسناً، سأحاول الآن أن أكون لطيفاً من جديد».

ثم أخبرني عن عائلته، وعن نفسه بشكل خاص. لقد كان مخطوباً لفتاة تدعى كلارا، تعيش في لندن، وكان والدها عاجزاً يلازم غرفته على الدوام ويسبب فيها مشاجرات عنيفة.

أخبرني هربرت أنه منذ أن بدأ يجني المال، كان ينوي الزواج من تلك الفتاة، وأضاف قائلاً: «لكن تعلم أنك لا تستطيع الزواج حين لا تزال تخطط لأمورك».

الفصل الثامن عشر
إلى ريتشموند بصحبة استيلا

ذات يوم تلقيت رسالة بالبريد، أثار مجرد غلافها الخارجي نشوة عظيمة في نفسي، إذ إنه لم يسبق لي أن رأيت الخط الذي كتبت به، فقد تعرفت إلى صاحب الخط. تقول الرسالة:

«يُفترض حضوري إلى لندن بعد يوم غد بعربة الظهر. أعتقد أنه تم الاتفاق على أن تحضر للقائي. على كل حال، هذا ما تراه الآنسة هافيشام، وأكتب رسالتي تقيداً بذلك. إنها ترسل لك تحياتها المخلصة: استيلا».

لو كان لديَّ الوقت الكافي، لأوصيت على بضع بدلات لهذه المناسبة، لكن بما أن الوقت ضيق، فلابد أن أقتنع بما لديّ. تلاشت شهيتي في الحال، ولم يهدأ لي بال إلى أن حل ذلك النهار، ولم يهدأ لي بال حينذاك، إذ رحت أتردد على مكتب العربات حتى قبل أن تغادر العربة «البلو بور» في بلدتنا.

ووصلت النافذة أخيراً ورأيت وجه استيلا، ورأيت يدها تلوح لي.

بدت استيلا في ثياب السفر أكثر جمالاً ورقة مما كانت عليه في السابق حتى بالنسبة لعيني. كان تصرفها أكثر جاذبية مما سبق لها أن اكترثت بإظهاره نحوي، فاعتقدت أني كنت أشهد تأثير الآنسة هافيشام في ذلك التغيير.

وقفنا في باحة النزل وأشارت إلى حقائبها، وحين تم تسلمها جميعاً تذكرت بعدما نسيت كل شيء في غضون ذلك ما عداها فإنني أجهل المكان الذي تقصده. فقالت لي: «إني ذاهبة إلى ريتشموند، والمسافة هي عشرة أميال. عليَّ أن أستقل عربة، وعليك بمرافقتي. هذه محفظتي، وعليك دفع الأجور منها. أوه، لابد أن تأخذ المحفظة. ليس لدينا خيار، أنا وأنت، سوى التقيد بالتعليمات».

«علينا أن نرسل بطلب عربة يا استيلا، هلّا ترتاحين قليلاً هنا؟».

«بلى، عليَّ أن أرتاح هنا، وأن أتناول بعض الشاي، وعليك الاهتمام بي في هذه الأثناء».

تأبَّطت ذراعي وكأن ذلك كان هو المفروض، وطلبت من خادم كان يحدق بالعربة كرجل لم يسبق أن رأى مثل ذلك الشيء في حياته، أن يقودنا إلى غرفة جلوس خاصة. فأرشدنا إلى غرفة في الطابق الأعلى، وطلبت الشاي لاستيلا. سألتها: «إلى أين أنت ذاهبة في ريتشموند؟».

قالت: «سأسكن لقاء نفقة كبيرة مع امرأة تدعى السيدة براندلي، وهي تستطيع اصطحابي هنا وهناك، والعمل على تقديمي وتعريف الناس إليَّ وتعريفي بهم».

«أظنك ستسعدين بالتغير والإعجاب».

«أجل، أعتقد ذلك، هل أنت سعيد مع السيد بوكيت؟».

«أعيش هناك بسرور، على الأقل بسرور كأي مكان أكون فيه بعيداً عنك».

فقالت بهدوء: «أيها الأحمق، كيف تنطق بمثل هذه التفاهات؟ صديقك السيد ماثيو في اعتقادي أفضل من باقي عائلته».

«بلغني أنه بالفعل من أصحاب الإيثار، وأسمى من الحسد الوضيع والكراهية».

«يقيني بأن لديّ كل سبب يحمل على هذا القول».

قالت: «وليس لديك كل سبب لقول ذلك عن باقي قومه، فهم دائماً ما يرسلون تقارير ليست في مصلحتك إلى الآنسة هافيشام. وقلما تستطيع إدراك مدى الكراهية التي يضمرها هؤلاء القوم حيالك».

«آمل ألا يسببوا لي الضرر».

انفجرت استيلا بالضحك بدلاً من أن تجيب، وقالت: «كلا، كلا، كن على يقين من ذلك. تأكد بأنني أضحك لأنهم يفشلون. يا لهؤلاء القوم ويا للعذاب الذي يتذوقونه!».

ضحكت ثانية، وقد بدا أن ضحكتها لا تنسجم مع الموقف، فتبادر إليَّ أنه بالفعل هناك ما يتجاوز حدود معرفتي بالأمور. وأضافت تقول: «كن مطمئناً بأن هؤلاء القوم لم ولن يُضعِفوا منِ مركزك لدى الآنسة هافيشام حتى بعد مئة عام. وإضافة إلى ذلك، فإنني مدينة لك لأنك السبب في انهماكهم وفي عدم جدوى حقارتهم، وهاك يدي عربوناً لذلك».

حين مدت لي يدها بدلال، أمسكت بها ووضعتها على شفتي. فقالت: «أيها الفتى السخيف، ألا تأخذ بالتحذير؟ أم أنك تقبل يدي بالروح ذاتها التي سمحت لك بها مرة تقبيل خدي؟».

قلت: «أي روح كانت تلك؟».

«علي التفكير للحظة. روح الازدراء بالمتآمرين».

«إن قلت نعم، فهل لي أن أقبل خدك ثانية؟».

كان عليك السؤال في أن تلمس اليد. لكن نعم، إن كنت ترغب في ذلك».

انحنيت وكان وجهها الهادئ كتمثال، فقالت وهي تنسل مبتعدة فور لمسي خدها: «والآن عليك الاهتمام بتناولي الشاي، وعليك مرافقتي إلى ريتشموند».

قرعت الجرس لطلب الشاي، وبعد أن أتى الشاي وتم تناوله ودفع الحساب، استقللنا العربة وانطلقنا بعيداً. وحين مررنا بهامر سميث، أشرت لها أين يعيش السيد بوكيت، وقلت إنه لا يبتعد كثيراً عن ريتشموند، وبأنني آمل لقاءها من حين إلى آخر.

«أوه، بلى، يجب أن تراني، وأن تأتي حين تجد الوقت مناسباً. يجب أن يجري ذكرك لدى العائلة ؛ في الواقع فقد تم ذكرك هناك».

وصلنا إلى ريتشموند أسرع مما كان متوقعاً، وكان المكان الذي نقصده منزلاً قديماً لا بأس به، فظهرت عند الباب حين قرعت الجرس خادمتان جاءتا لاستقبال استيلا. أعطتني يدها بابتسامة، وتمنت لي ليلة سعيدة ثم توارت في الداخل. مكثت أحدق بالمنزل وأنا أفكر في السعادة التي سأنعم بها لو أنني أعيش معها هناك، وأنا مدرك في أنني لم أسعد معها أبداً، بل كنت في تعاسة دائمة.

الفصل التاسع عشر
الهوامش المالية

بينما اعتدت على الآمال، بدأت أشعر بتأثيرها النفسي في نفسي وفي الذين من حولي، فعشت في حال من القلق المستمر حيال تصرفي مع جو، ولم يكن ضميري مرتاحاً تجاه بيدي. وحين كنت أستيقظ في الليل، كنت أفكر بنفس كئيبة بأنني ربما كنت أكثر سعادة لو أنني لم أتعرف إلى وجه الآنسة هافيشام، وبلغت الرجولة قانعاً بكوني شريك جو في دكانه القديم المتواضع.

لم يكن مركزي الجديد بذي فائدة لِهربرت. فقد دفعه تبذيري لمصاريف فاقت قدرته، وأفسدت البساطة في حياته، وأصاب طمأنينته بالقلق والندم. وبدأت أغرق في الدين، وسرعان ما لحق بي هربرت. كان بودي أن أتحمل مصاريف هربرت، لكنه كان معتداً بنفسه، فلم أستطع التقدم إليه بمثل هذا الاقتراح. وهكذا غرق بالمصاعب من كل حدب وصوب، وبقي ينتبه لنفسه.

كان في كل صباح يذهب إلى الوسط التجاري، وغالباً ما كنت

أزوره في مكتبه لكنني لا أذكر أني رأيته مرة يفعل شيئاً سوى النظر حوله. فكنت أقول له أحياناً: «يا عزيزي هربرت، إن وضعنا سيئ»

«يا عزيزي هاندل، لئن صدقتني، فقد كنت على وشك النطق بهذه الكلمات». وكنت أقول: «إذن لنمعن النظر في أمورنا». كنا نشعر دائماً بمتعة بالغة عن تحديد موعد لهذا الغرض. فنطلب وجبة خاصة على الغداء مع زجاجة نبيذ غالية لشحذ الفكر لتلك المناسبة. وبعد الغداء، نأتي بالأقلام والورق. فأتناول ورقة وأكتب في أعلاها: «مذكرة بديون بيب». كذلك كان هربرت يتناول ورقة ويكتب عليها: «مذكرة بديون هربرت». ثم يرجع كل منا إلى كومة أوراق بجانبه، سبق أن ألقيت في الأدراج، أو استحالت نتفاً في الجيوب، أو أصابها بعض الاحتراق من الشموع، أو ألصقت إلى المرآة طوال الأسبوع، أو لعلها أتلفت بشكل أو بآخر. فكان صرير الأقلام يبعث فينا أثناء الكتابة كثيراً من الانتعاش حتى إنه كان يصعب أحياناً التفريق بين القيام بهذا العمل وسداد المال بالفعل.

وبعد أن نكتب لبعض الوقت، كنت أسأل هربرت كيف تسير معه الأمور، فيقول: «إنها تتصاعد يا هاندل، لعمري إنها تتصاعد».

فأجيب: «كن حازماً يا هربرت، واجه الأمر ودقق في شؤونك».

وتكون لأسلوبي الجازم نتائجه، فينكب هربرت على العمل من جديد، ثم يستسلم بعد فترة، مبرراً بأن بعض الفواتير قد فقدت.

«إذن قدرها يا هربرت، قدرها بأرقام مدورة وسجلها».

فيجيب صديقي بأعجاب: «يا لك من إنسان بارع، فلديك في مجال الأعمال قدرات رائعة حقاً!».

اعتقدت ذلك أيضاً، واعتبرت نفسي في تلك المناسبات رجل أعمال من الدرجة الأولى: حازماً، حاسماً، واضحاً وهادئ المزاج.

ومن إحدى عاداتي في العمل ما كنت أدعوه «تخصيص هامش». فلو افترضنا مثلاً أن ديون هربرت هي مئة وأربعة وستون جنيهاً.

أقول: «اترك هامشاً وسجلها مئتين». أو لنفترض أن ديوني هي أربعة أضعاف ذلك، فإنني أترك هامشاً وأسجلها سبعمئة. كنت شديد الإيمان بالحكمة من هذا الهامش، لكن لابد لي من الاعتراف بأنها طريقة مكلفة. إذ سرعان ما نعرف بديون جديدة تغطي الهامش بأكمله وتتجاوز حدودها لتدخل في حيز هامش آخر.

إنما كان يسودنا شعور بالسكينة والارتياح نتيجة التدقيق بأحوالنا، وهو ما عززني آنذاك بموقف من الإعجاب بالنفس. ذات مساء كنت في حالة السكينة هذه حين وصلتني رسالة من بيدي تعلمني فيها عن وفاة شقيقتي وتطلب مني حضور الدفن نهار الاثنين التالي.

يندر أن أتذكر شقيقتي بحنان كثير، لكن حسبي أن هناك صدمة من الندم، بغياب مشاعر الحنان. وبتأثير ذلك، امتلكني غيظ شديد من المهاجم الذي عانت الكثير بسببه، وشعرت بأنه لو كان لديّ الدليل الكافي، لكنت طاردت أورليك، أو أي إنساناً آخر، إلى آخر الدنيا انتقاماً.

كتبت إلى جو معزياً، وحين حل النهار استقللت عربة إلى قريتي وسرت باتجاه دكان الحدادة.

بعد انتهاء مراسم الدفن، تناولت غداء بارداً مع جو وبيدي. وقد سُر جو كثيراً حين سألت إن كان بوسعي أن أنام في غرفتي الصغيرة. وبينما بدأت تقترب بداية الظلمة، اغتنمت فرصة للخروج إلى الحديقة مع بيدي في نزهة قصيرة. قلت لها: «أظن أن من الصعب عليك البقاء هنا يا عزيزتي بيدي. «فقالت بلهجة أسف: أوه، لا يمكنني ذلك يا سيد بيب. لقد كنت أتحدث إلى السيدة

هابل، وسأذهب إليها في الغد. آمل أن تستطيع الاهتمام بالسيد غارجري، معاً إلى أن يستقر».

«وكيف ستعيشين يا بيدي؟ إن كنت بحاجة إلى المال».

«كيف سأعيش؟ سأخبرك يا سيد بيب. سأحاول الحصول على وظيفة معلمة في المدرسة الجديدة المنجزة تقريباً هنا، لقد تعلمت منك الكثير يا سيد بيب؛ وكان لديّ الوقت للتقدم منذ ذلك الحين».

«أعتقد أنك ستتحسنين دائماً يا بيدي، وفي كافة الظروف».

ثم أخبرتني بتفاصيل وفاة شقيقتي. إذ ظلت في إحدى حالاتها السيئة أربعة أيام، وحين خرجت منها في المساء، قالت «جو» بوضوح. فاستدعي جو من الدكان وأشارت إليه بأنها تريد أن يجلس بالقرب منها، ثم ألقت برأسها على كتفه بارتياح ورضا. وقالت «جو» ثانية و «سامحني»، ومرة «بيب». ولم ترفع رأسها بعد ذلك، وبعد ساعة كانت قد فارقت الحياة.

«ألم يُكتشف شيء يا بيدي؟».

«لا شيء». «هل تعلمين ماذا حل بأورليك؟».

«أعتقد من لون ملابسه أنه يعمل في مقالع الحجارة».

ثم أخبرتني أنه ما زال يحاول إيقاعها في حبه، الأمر الذي أثار غضبي الشديد، كان علي الذهاب في الصباح الباكر. وفي الصباح الباكر، كنت في الخارج أنظر خلسة من إحدى نوافذ دكان الحدادة. وقفت هناك بضع دقائق، أتطلع إلى جو وقد باشر عمله، بينما وهج الصحة والقوة بادٍ على محياه.

«وداعاً يا عزيزي جو! كلا، لا تمسحها بالله عليك، أعطني يدك المسودة! سأعود ثانية ومرات عديدة».

فقال جو: «ليس عاجلاً يا سيدي، وليس دائماً يا بيب».

الفصل العشرون
الوجه المشرق

انتقلت مع هربرت من سيئ إلى أسوأ بزيادة ديوننا والبحث في شؤوننا، ووضع الهوامش، وما شابه ذلك، ومع مرور الوقت بلغت سن الحادية والعشرين. وقبل بلوغي الحادية والعشرين بيوم واحد، تلقيت مذكرة رسمية من ويميك يعلمني فيها أن السيد جاغرز سيكون سعيداً إن قمت بزيارته في الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي.

حين وصلت إلي المكتب، هنأني ويميك وأومأ لي برأسه للدخول إلى غرفة وصيي.

صافحني السيد جاغرز وهو يخاطبني بالسيد بيب وقدم لي تهانيه. ثم سألني عن أحوال معيشتي، فلم أستطع الإجابة عن ذلك السؤال.

سألته إن كنت سأتعرف إلى هوية المحسن إليّ ذلك النهار. فأجابني بالنفي، ثم قال إنه على علم بأنني مدين، فقدم لي ورقة نقدية بقيمة خمسمئة جنيه، وأضاف بأنني سأحصل على نفس

المبلغ ثانياً، وأن عليّ أن أعيش ضمن هذه الحدود إلى أن يظهر المحسن إليّ. بدأت بالتعبير عن امتناني للمحسن لكرمه الفائق الذي يخصني به، حين أوقفني السيد جاغرز ليقول: «أنا لا أتلقى أجراً لأنقل كلماتك للآخرين يا بيب».

وبذلت جهوداً متتالية لأتبين متى سيتم الكشف عن المحسن السري. وإن كان سيأتي إلى لندن، لكنها باءت جميعها بالفشل. بل كل ما استطعت حمل السيد جاغرز على قوله هو: «حين يكشف لك ذلك الشخص عن نفسه، سيتوقف دوري في المهمة». من هنا استنتجت أن الآنسة هافيشام لم تخبره لسبب أو لآخر عن إعدادها لي للزواج من استيلا، أو أنه يستاء من ذلك ويشعر بالغيرة حياله، أو يعارض المخطط بشدة ولا يرغب في القيام بشيء بصدده.

تركته وذهبت إلى مكتب ويميك، ولما أصبحت الجنيهات الخمسمئة في جيبي، خطرت ببالي فكرة ورأيت أن أستشير ويميك. فأخبرته أنني أود مساعدة صديق يحاول الانطلاق في ميدان التجارة لكنه لا يملك المال لذلك. فكان رأي السيد ويميك بأنني أرتكب ضرباً من الحماقة لو فعلت ذلك، وسيكون حالي كمن يلقي بماله سدى في نهر التايمز.

لكن ويميك كان في منزله أكثر كرماً من المكتب، ولذا قمت بزيارته مرات عدة في المنزل، ووجدنا في النهاية تاجراً شاباً يدعى كلاريكر كان يحتاج إلى مساعدة عاقلة ورأس مال، وقد يحتاج في حينه إلى شريك له. وقد وقعت معه على اتفاق سري بشأن هربرت، فدفعت نصف مبلغ الخمسمئة جنيه الذي أملكه، ووعدت بتسديد دفعات أخرى من دخلي بتواريخ محددة.

كان العمل من التنظيم البارع حتى أن هربرت لم يكن لديه أدنى

شك في ضلوعي فيه. ولن أنسى أبداً وجهه المشرق الذي عاد به ذات مساء ليخبرني خبراً مذهلاً، هو أنه تعرف إلى تاجر شاب أبدى إعجاباً باهراً به، وأنه مؤمن بأن الفرج قد جاء أخيراً. يوماً بعد يوم أخذت آماله تكبر ووجهه يبتهج. إلى أن تم أخيراً إنجاز كل شيء ودخل ميدان العمل. بكيت فرحاً عندما ذهبت إلى السرير، لأنني رأيت أن آمالي قد منحت شخصاً بعض الخير.

الفصل الحادي والعشرون
شجار مؤقت

لو قدر لذلك المنزل الوقور في ريتشموند أن يستحيل مزاراً للأرواح حين أموت، فلا شك أن شبحي سيكون من زائريه. آهٍ لليالي والأيام العديدة التي كانت روحي المعذبة تزور ذلك المنزل حين كانت استيلا تعيش هناك!».

ففي داخل المنزل وخارجه، كنت أعاني كل أنواع العذاب الذي تسببه لي استيلا؛ فطبيعة علاقاتي معها التي وضعتني موضع الألفة بدلاً من موضع التفصيل، كادت تدفعني إلى الجنون. فكانت تستخدمني لمضايقة باقي المعجبين، وكان لها معجبون كثر. كنت أشاهدها غالباً في ريتشموند وتبلغني أخبارها في المدينة، وغالباً ما كنت أصطحبها مع عائلة براندلي التي تقيم معهم للتنزه وحضور المسرحيات والحفلات الموسيقية وحفلات الأنس والسمر وسائر أنواع اللهو، حيث كنت ألاحقها وكان كل ذلك مصدر عذاب وشقاء. ولم أنعم بساعة من السعادة بصحبتها، ورغم ذلك فقد بقيت أفكر

على مدار الساعة بالسعادة الناجمة عن وجودها معي حتى الممات.

ذات مساء أخبرتني استيلا أن الآنسة هافيشام تود أن تستضيفها ليوم في «ساتيس هاوس»، وأن عليّ اصطحابها إلى هناك والعودة إذا شئت. فوافقت بكل طيبة خاطر، وذهبنا بعد يومين لنجد الآنسة هافيشام في الغرفة حيث رأيتها أول مرة.

كانت أكثر ولعاً باستيلا نحوي بنظرة ثاقبة، وسألتني بتوق حتى على مسمع استيلا: «كيف تعاملك يا بيب، كيف تعاملك؟». لكن عندما جلسنا بالقرب من موقدها ليلاً، كانت غريبة للغاية، إذ بينما ظلت تمسك بيد استيلا، جعلتها تذكر أسماء وأحوال الرجال الذين تجتذبهم، وفيما كانت الآنسة هافيشام تصغي باهتمام، جلست تتكئ باليد الأخرى على عصاها وتحدق إليّ كالشبح.

استنتجت من ذلك أن استيلا كانت تستخدم لتثأر الآنسة هافيشام من الرجال، وأنها لن تكون من نصيبي إلا حين تثأر لها. واستنتجت من ذلك سبب إبعادي طيلة ذلك الوقت، وسبب رفض وصيي الإقرار بأي معلومات تتعلق بأنها ستكون من نصيبي.

وحدث في هذه الزيارة أن تبادلت استيلا والآنسة هافيشام كلاماً قاسياً، وكانت هذه أول مرة أراهما تتعارضان.

كنا نجلس قرب الموقد، والآنسة هافيشام لا تزال تتأبط ذراع استيلا، حين بدأت هذه تسحب يدها تدريجياً.

فقالت الآنسة هافيشام وهي تنظر إليها بحدة: «ماذا! هل سئمتِ؟».

أجابت استيلا: «بل سئمت قليلاً من نفسي». وهي تحرر ذراعها وتتجه نحو المدفأة، حيث وقفت تحد إلى النار.

فصرخت الآنسة هافيشام وهي تضرب الأرض بعصاها بعصبية:

«قولي الحقيقة أيتها الجحودة! لقد سئمتِ».

نظرت استيلا إليها بهدوء تام، ثم حدقت إلى النار ثانيةً.

فقالت الآنسة هافيشام: «يا لك من جماد وحجر! يا لقلبك البارد، البارد».

قالت استيلا: «ماذا؟ وهل تلومينني لأنني باردة؟ أنتي؟».

فكان الرد العنيف: «ألست كذلك؟».

قالت استيلا: «عليك أن تعلمي أنني كما صنعتني. خذي المديح كله، خذي الملامة كلها، خذي النجاح كله، خذي الفشل برمته، وباختصار خذيني».

صاحت الآنسة هافيشام بمرارة: «أوه، انظر إليها، انظر إليها! انظر إليها حيث تربت، كم هي قاسية وجاحدة من رباها! حيث وضعتها إلى هذا الصدر البائس حين كان ينزف من الطعنات التي أصابته، وحيث أغدقت عليها سنوات من الحنان والعطف».

قالت استيلا: «ماذا تريدين؟ لقد كنت طيبة جداً معي، وإنني مدينة لك بكل شيء. فما الذي تريدينه؟».

أجابت الأخرى: «الحب».

«لديك إياه».

قال الآنسة هافيشام: «كلا».

«والدتي بالتبني، لقد قلت إنني مدينة لك بكل شيء، كل ما بحوزتي هو لك مجاناً، وكل ما منحتني، لك استرجاعه عند الطلب، وإن سألتني أن أمنحك ما لم تمنحيني إياه، فإن إقراري بالجميل والواجب يتعذر عليه المستحيل».

صاحت الآنسة هافيشام وهي تلتفت نحوي بغضب: «ألم أعطها الحب أبداً! ألم أعطها الحب متقداً، بينما هي تتحدث إليّ هكذا!

لتدعوني مجنونة، لتدعوني مجنونة!».

أجابت استيلا: «ولماذا أدعوك مجنونة أنا من دون سائر الناس؟ هل من أحد يعرف نواياك نصف ما أعرف؟ وهل من أحد يعرف ذاكرتك الثابتة نصف ما أعرف؟ أنا التي جلست بجانب هذا الموقد بالذات أتعلم دروسك وأنظر في وجهك، حين كان وجهك غريباً يخيفني».

فانتدبت الآنسة هافيشام تقول: «منسية بسرعة! أحوالي باتت طي النسيان!».

«كلا، لم تنسَ، لم تنسَ، بل هي مخزونة في ذاكرتي. متى وجدتني أخالف تعليماتك؟ ومتى وجدتني أوافق على ما تعارضين عليه؟ كوني عادلة معي. «ثم لمست صدرها بيدها».

انتدبت الآنسة هافيشام تقول: «مغرورة جداً، مغرورة جداً».

قالت استيلا: «من علمني أن أكون مغرورة؟ ومن كان يمتدحني وأنا أتعلم دروسي؟».

وزعقت الآنسة هافيشام تقول: «قاسية جداً، قاسية جداً».

«ومن علمني أن أكون قاسية؟ ومن كان يمتدحني وأنا أتعلم دروسي؟».

صاحت الآنسة هافيشام وهي تمد ذراعيها: «لكن لتكوني مغرورة وقاسية معي. استيلا، لتكوني مغرورة وقاسية معي».

نظرت استيلا إليها بتعجب هادئ، ثم عادت تنظر إلى النار ثانية. واستقرت الآنسة هافيشام، لست أدري كيف على أرض الغرفة، فانتهزت الفرصة لأغادر الغرفة وأتمشى تحت ضوء النجوم مدة ساعة أو أكثر في الحديقة المهملة. وعندما استجمعت شجاعتي في النهاية لأعود للغرفة، وجدت استيلا تجلس على ركبة الآنسة

هافيشام. بعد ذلك لعبت الورق مع استيلا كسابق عهدنا، وبذلك انقضت الأمسية، فذهبت للنوم.

قبل أن نغادر في اليوم التالي، لم يتجدد الشجار بين الآنسة هافيشام واستيلا، ولم يتجدد في أي مناسبة مماثلة.

يتعذر عليّ قلب هذه الصفحة من حياتي دون أن أذكر فيها اسم بانتلي درامل، وإلا كنت في منتهى السعادة.

ففي ذات مناسبة، حين كنت أنا وهربرت مجتمعين مع بعض الأصدقاء في نادينا، تراءى لي أنني رأيت بانتلي ينظر باستهزاء نحوي بطريقة مشينة، وما لبث أن عرض على الحاضرين نخب استيلا. سألت: «استيلا من؟».

فأجاب درامل: «لا عليك».

قلت: «استيلا من أين».؟

«من ريتشموند أيها السادة، ذات الجمال الفريد».

فقال هربرت عبر الطاولة بعد أن شُرب النخب: «أعرف تلك السيدة».

فقال درامل: «حقاً!».

قلت مضيفاً وقد احمر وجهي: «وكذلك أنا».

قال درامل: «حقاً! يا إلهي!».

أثارت هذه الإهانة غيظي فدعوته بالإنسان الوقح على التجرؤ بشرب نخب فتاة لا يعرف عنها شيئاً، وأفصحت عن استعدادي للمبارزة معه: لكن الحضور قرروا أنه في حال أحضر درامل شهادة من السيدة تفيد أنه يحمل شرف معرفتها، فسيتوجب عليّ الاعتذار له بصفتي سيداً، نظراً لأنني فقدت صوابي. وفي اليوم التالي جاء درامل يحمل اعترافاً موجزاً بخط استيلا، يفيد أنها حازت شرف

الرقص معه مرات عدة، مما لم يترك لي أي خيار سوى الاعتذار له.

يعجز لساني بالتعبير عن الألم الناشئ عن التفكير في أن استيلا تبدي إعجابها بمثل هذا الإنسان الحقير الأخرق. لذا اغتنمت أول فرصة للقائها في حفل في ريتشموند ومفاتحتها حول هذا الموضوع وكان درامل بين الحاضرين.

قلت: «استيلا، انظري إلى ذاك الرجل في الزاوية الذي ينظر إلينا».

قالت استيلا: «لماذا لنظر إليه؟ وما المثير فيه لأنظر إليه».؟

قلت: «ذلك السؤال بالذات الذي أريد توجيهه إليك. فما زال يحوم حولك طيلة الليل».

فأجابت استيلا وهي ترمقه بنظرها: «أن ألعث وسائر المخلوقات الكريهة تحوم حول الشمعة المضاءة، فهل يسع الشمعة القيام بشيء؟».

«كلا، لكنني أشعر بالخزي يا استيلا إذ تشجعين رجلاً مقيتاً للغاية مثل درامل. رأيتك تمنحيها إياه نظراتك وابتساماتك هذه الليلة بالذات، كما لم تمنحينيها أبداً».

قالت استيلا: «وهل تريدني إذن أن أخدعك وأوقع بك؟».

وهل تخدعينه وتوقعين به يا استيلا؟».

«أجل، وبالكثيرين غيره جميعهم ما عداك. ها هي السيدة براندلي مقبلة، لن أقول أكثر من ذلك».

الفصل الثاني والعشرون
الزيارة المربكة

بلغت الثالثة والعشرين، وكنا تركنا نزل برنارد منذ أكثر من سنة وسكنا في «التامبل»، وكانت غرفنا في «الغاردن كورت» بجانب النهر. وقد دفع الرحلة لهربرت إلى مرسيليا، فبقيت بمفردي. افتقدت وجه صديقي المرح وعشرته، فجلست أقرأ حتى الحادية عشرة. وما إن أغلقت الكتاب حتى سمعت وقع أقدام على الدرج. حملت قنديل القراءة وخرجت إلى أعلى الدرج.

ناديت وأنا أنظر إلى الأسفل: «يوجد شخص في الأسفل، أليس كذلك؟».

«أجل».

«أي طابق تريد؟».

«الأعلى، أريد السيد بيب».

« ذلك اسمي».

صعد الرجل، ومن خلال ضوء مصباحي رأيت وجهاً غريباً عليّ،

كان ينظر إليّ بتأثر وفرح لرؤيتي.

وبينما حركت المصباح مع إقبال الرجل، تبين لي أنه يرتدي كالمسافرين في البحر.

كان شعره طويلاً رمادي اللون وكان يبلغ نحو الستين من العمر. قوي البنية، وقد اسمر جلده واشتد بسبب تعرضه لعوامل الطقس. ولما صعد الدرجة أو الدرجتين الأخيرتين، رأيته يمد كلتا يديه نحوي. فقلت: «أرجوك ما هو غرضك؟».

كرر: «غرضي؟». ثم قال: «آه! أجل. سأشرح غرضي إذا سمحت». «وهل تود الدخول؟»

فأجاب: «نعم أود الدخول».

أدخلته الغرفة التي كنت غادرتها لتوي، وطلبت إليه التعريف بنفسه. نظر حوله بفرح وكأن له نصيباً من الأشياء التي يتطلع إليها، ثم خلع معطفه وقبعته الخشنة ومد يده إلي ثانية، فقلت وأنا أشك تقريباً بأنه مجنون: «ماذا تقصد؟».

جلس على كرسي قرب الموقد وغطى جبينه بيديه السمراوين الكبيرتين، ثم قال وهو ينظر من فوق كتفه: «ما من أحد هنا، أليس كذلك؟».

فقلت: «لماذا تسأل هذا السؤال وأنت غريب جاء إلى منزلي في هذا الوقت من الليل؟».

أجاب وهو يهز رأسه إلي بمحبة: «أنت شاب شجاع، إنني مسرور لأنك نشأت شاباً شجاعاً! لا تسئ إليّ، فستندم لاحقاً إن فعلت».

أقلعت عن نيتي التي أفصح عنها، فقد كنت أعرفه، عرفت المجرم صاحبي، إذ لم يكن بحاجة ليخرج المبرد من جيبه ويريني إياه. لم يكن بحاجة ليتناول المنديل من جيبه ويلفه حول رأسه. تذكرته

حتى قبل أن يقدم لي هذه الأدلة. عاد إلى حيث كنت واقفاً، ومد لي ذراعيه مرة أخرى. لم أعرف ماذا أفعل، فمددت له يدي على مضض، فأمسك بهما ورفعهما إلى شفتيه ثم قبلهما، ثم قال: «لقد تصرفت بنبل يا ولدي. بيب النبيل! ولم أنسَ ذلك أبداً».

كان على وشك أن يغمرني، لكنني أبعدته وقلت: «ابق بعيداً! إن كنت ممتناً لما فعلته عندما كنت طفلاً صغيراً، فحبذا لو أظهرت امتنانك بتقويم سبيلك في الحياة. إنك مبتل وتبدو مرهقاً، هل تشرب شيئاً قبل رحيلك؟».

قال بلى، فحضرت له بعض الرم والماء الساخن وقدمته إليه، فوجدت لدهشتي عينيه مغرورقتين في الدموع. لانت مشاعري حيال ذلك فأسرعت أسكب لنفسي بعض الشراب، وقلت له: «آسف لأنني تحدثت إليك بخشونة الآن. آمل أن تكون سعيداً وعلى ما يرام. كيف تعيش؟».

فقال: «اشتغلت بتربية الخراف وتربية الماشية، إلى جانب بعض التجارة، بعيداً في العالم الجديد».

«وهل حققت النجاح كما آمل؟».

«لقد حققت نجاحاً باهراً».

«يسرني سماع ذلك».

«هل لي أن أتجرّأ بسؤالك كيف حققت النجاح منذ تقابلنا في المستنقعات؟».

بدأت أرتجف، وحملت نفسي على إخباره بأنه قد تم اختياري لوراثة أحد الممتلكات.

«هل لي أن أسأل ممتلكات من؟».

«لست أدري».

«هل لي أن أخمن مقدار دخلك بعد أن بلغت الحادية والعشرين؟ والآن بالنسبة للرقم الأول، خمسة؟ وبالنسبة للوصي، لعله أحد المحامين. والآن إلى أول حرف من اسم المحامي هو حرف (ج)؟ لعله جاغرز؟»

ثم أخبرني لدهشتي بأنه هو المحسن إليّ، وأنه عبر البحر إلى بورتسماوث وحصل على عنواني من ويميك. لقد جعل مني سيداً! لقد عاش حياة خشنة كي أعيش حياة رقيقة. وعمل بجد كي أترفع عن العمل.

ركع أمامي ودعاني ابنه، لقد عمل راعياً مأجوراً وأقسم أن كل جنيه يكسبه سيكون لي. ثم توفي سيده وترك له المال، فحظي بالحريةِ وعمل لحسابه فاغتنى وجعل مني سيداً.

وضع يده على كتفي، فارتجفت للفكرة التي أعرفها جيداً، فلعل يده ملطخة بالدم.. ثم سألني: «أين ستضعني؟ يجب أن أُوضع بمكان ما يا ولدي».

قلت: «ألتنام؟»

أجاب: «أجل، لأنام طويلاً وبارتياح، فقد تقاذفني البحر وأرهقني شهوراً طويلة».

قلت: «إن صديقي وشريك منزلي غائب، عليك بغرفته».

«لن يأتي غداً، على ما أرجو».

قلت: «لا، لن يأتي غداً».

«انظر يا بني العزيز، أقول هذا لأن الحذر ضروري».

«وماذا تقصد بالحذر؟»

«إنه الموت، لقد حكم عليّ بالسجن مدى الحياة، والموت هو لمن يعود».

كان همي الأول إغلاق مصاريع النوافذ لكيلا يتسرب الضوء من الداخل، ثم إغلاق الأبواب وإقفالها. فأعرته بعض البياضات، وآوى إلى الفراش.

جلست بجانب الموقد أخشى الذهاب إلى فراشي، وبقيت ساعة أو أكثر في ذهول لا أستطيع التفكير، ولم أدرك تماماً، إلا حينما بدأت التفكير، كم كنت محطماً، وأن السفينة التي أبحرت على متنها أصبحت أشلاء».

نوايا الآنسة هافيشام نحوي، مجرد حلم، استيلا لم تكن من نصيبي ؛ فلم يبقَ لي سوى المعاناة في ((الساتيس هاوس)) لمثابة جزاء لعلاقات الجشع. ذلك كان أول الآلام التي عانيتها. لكن الألم الأشد والأعمق كان أنني هجرت جو وبيدي من أجل المجرم المتهم بجرائم لا أعرفها، والمعرض للشنق.

الفصل الثالث والعشرون
الحقيقة البغيضة

أمضيت ليلة مفعمة بالقلق وأنا أغط قبالة الموقد. استيقظت في السادسة ثم سهوت ثانية وغرقت في نوم عميق، أيقظني منه ضوء النهار بإجفال. اغتسلت وارتديت ملابسي وجلست قرب الموقدة أنتظر قدومه لتناول الإفطار.

وما لبث أن فتح الباب ودخل، لم أستطع حمل نفسي على تحمل مظهره، وبدا لي أن مظهره أسوأ من ضوء النهار. أخبرني أنه انتحل اسم بروفيس على متن الباخرة، ولكن اسمه الحقيقي هو آبل ماغويتش.

بعد الإفطار وقد تناول طعامه بشراهة راح يدخن غليونه، ثم أخرج محفظة مكتنزة من جيبه تعج بالأوراق المالية، وألقى بها على الطاولة.

«هناك ما يستحق الإنفاق في هذه المحفظة، يا ولدي العزيز. إنه لك. إن كل ما بحوزتي ليس لي، بل هو لك».

فقلت: «أود التحدث إليك. أود معرفة ما ينبغي القيام به. أود معرفة السبيل إلى تجنيبك الخطر».

قال: «حسناً يا ولدي العزيز، الخطر ليس بكبير، إلا إذا وشى أحدهم بي».

«وكم ستبقى هنا؟»

«كم سأبقى؟ لست بعائد، لقد جئت لأبقى هنا».

قلت: «وأين ستقيم؟ وماذا نفعل بك؟ أين ستكون آمناً؟»

أجاب: «يا بني، هناك شعور مستعارة للتنكر، ومساحيق للشعر ونظارات وملابس سوداء أما بالنسبة إلى أين وكيف سأعيش، فأعطني رأيك»

بدا لي أنني لن أستطيع سوى أن أجد له مسكناً هادئاً يمتلكه بالجوار حين يعود هربرت الذي أتوقع رجوعه بعد يومين أو ثلاثة، أما الإفضاء بالسر إلى هربرت، فكان أمراً واضحاً بالنسبة لي.

أقنعت بروفيس أن يتخذ لباس مزارع غني، وتدبرنا أن يحلق شعره قصيراً مع إضافة بعض المسحوق عليه. وكان عليه الابتعاد عن أنظار خدمي إلى أن يتم تجهيز ملابسه.

كنت محظوظاً حين أمَّنْت له الطابق الثاني من مبنى محتوم للسكن في الجوار، ورحت أنتقل من متجر إلى آخر أشتري الملابس الضرورية، فارتداها في اليوم التالي. لكن مهما كانت الثياب التي يرتديها، فقد كانت أقل ملاءمة مما كان يرتديه في السابق. وباعتقادي، فإن فيه شيئاً ما يجعل من محاولة إخفاء ملامحه أمراً يائساً. فقد كان يجر إحدى ساقيه وكأنها لا تزال مثقلة بالحديد. زد على ذلك، فإن عيشة الأكواخ المنعزلة التي قضاها سابقاً أضفت عليه جواً من الفضاضة يتعذر على الثياب تلطيفه، وفي كل طرقه

بالجلوس والأكل والشرب كانت هناك شخصية السجين والمجرم واضحة أشد وضوح.

كنت أتوقع وصول هربرت طول الوقت، ولم أكن أجرؤ على الخروج إلا حين أصطحب بروفيس للتنزه في الهواء الطلق بعد حلول الظلام، وأخيراً سمعت ذات يوم خطوات هربرت السارة على السلم، جاء باندفاع مفعماً بالنشاط من رحلته إلى فرنسا.

«هاندل، يا عزيزي، كيف حالك؟ وكيف حالك من جديد؟ يبدو كأنني تغيبت طوال سنة كاملة! لا شك في ذلك، فقد غدوت في غاية الشحوب والنحول! هاندل، يا هالو! عفواً».

قلت وأنا أغلق الباب: «هربرت، يا صديقي العزيز، لقد حدث شيء غريب جداً.هذا أحد زواري».

تقدم بروفيس يمسك بانجيل أسود صغير أخرجه من جيبه وقال: «لا عليك يا عزيزي. أمسكه بيدك اليمنى. قتلك الله على الفور إن خدعتني. قبله».

فقلت لهربرت: «افعل ذلك، كما يريد. «فأذعن هربرت وهو ينظر إليّ بدهشة وقلق حميم. ثم جلسنا جميعاً قرب الموقد، وأفضيت بالسر كاملاً.

جلسنا حتى وقت متأخر، وحل منتصف الليل قبل أن أصطحب بروفيس إلى مسكنه وأطمئن عليه. وحين أغلق الباب وراءه، شعرت بأول لحظة ارتياح عرفتها منذ ليلة وصوله.

حين عدت إلى شقتي، جلست مع هربرتِ للبحث بالسؤال التالي: ماذا ينبغي القيام به؟ فقلت: «هربرت، لابد من القيام بعمل ما، فهو مصمم على مصاريف جديدة شتى، جياد وعربات وغيرها من الأمور الباهظة. لا بد من إيقافه بطريقة ما».

«تعني أنه لا يسعك أن تقبل»

فقاطعته حين تمهل وقلت: «وكيف يسعني ذلك؟ تصور! انظر إليه! تصور الحياة التي عاشها!».

سرت بنا رعشة، وقلت: «لكنني أخشى يا هربرت أن الحقيقة البغيضة هي أنه مرتبط بي، مرتبط بي بشدة. هل هناك ما يشبه هذا الحظ! ثم تصور كم أنا مدين له. إني مثقل بالدين وهو دين ثقيل جداً علي، في وقت ليست لدي فيه أي آمال ولم أُعَدُّ لأي مهنة، ولا أصلح لشيء باستثناء أن أكون جندياً».

أجاب هربرت: «الجندية لن تفيد.. لأنك لن تستطيع أن تسدد دينك له، ثم إنها شيء تافه، لعلك تكون أفضل بكثير في مؤسسة كلاريكر، رغم صغرها. إنني أعمل كي أصبح شريكاً، كما تعلم».

يا لصاحبي المسكين! فليس لديه أدنى علم بمال من. ثم تابع هربرت يقول: «لكن الأمر الأول والأساس الذي يجب القيام به هو إخراجه من إنجلترا. سيكون عليك الذهاب معه، ومن ثم يصار إلى إقناعه بالذهاب».

جاء في الصباح التالي لتناول الإفطار، فسألته أن يخبرنا المزيد عن نفسه وعن المجرم الآخر الذي تعارك معه في المستنقعات.

وافق على ذلك بعد أن ذكّر هربرت بأنه ملزم باليمين الذي أقسمه بكتمان السر، وهذا باختصار ما أخبرنا به: «لا أذكر أين ولدت أكثر مما تذكران، كان أول عهدي بنفسي في إسكس، أسرق اللفت لأعيش. لم يرني أحد جائع رث الثياب إلا وطردني أو ألقى القبض عليًّ. أدخلت السجن مرات عدة حتى اعتدت عليه، فعشت فعلياً في السجن. مارست التسكع والتسول والسرقة، وعملت أحياناً حين كان يتاح لي، سارقاً للطيور والدواجن مرة أخرى، وعاملاً كادحاً

بمناسبة أخرى، ثم صائداً للطيور بواسطة الصقر، وفي أمور أخرى لا تكسب بل تؤدي إلى متاعب حتى بلغت سن الرجولة.

ثم في سباق إبسوم، منذ أكثر من عشرين سنة، تعرفت إلى رجل لو عثرت عليه لحطمت رأسه بهذا القضيب. اسمه الحقيقي كومبيسون، ذلك هو الرجل يا عزيزي بيب، الذي شاهدتني أتعارك معه في المستنقعات. حاول كومبيسون هذا أن يكون سيداً، والتحق بمدرسة حكومية داخلية حيث تلقى التعليم. كان لطيفاً في حديثه وبهي الطلعة أيضاً. أقنعني بأن نتشارك في نشاطه بالاحتيال والتزوير وتسريب الأموال المسروقة، إلى ما شابه ذلك. فكافة أنواع الحيل التي يدبرها رأسه، دون أن يقع في أسرها وينال فيها الأرباح بينما يدخل غيره السجن بسببها تلك كانت أعمال كومبيسون، لم يكن لديه قلب أكثر من مبرد حديد، وكان بارداً كالموت، وحاذقاً كالشيطان. وسرعان ما انهمكنا في العمل، واستدرجني لشباكه لأعمل عبداً له.

كنت مديناً له على الدوام، وكنت أعمل رهن إشارته، وأشتغل لصالحه وأعرض نفسي دائماً للخطر. في نهاية الأمر، ألقي القبض علينا بتهمة تسريب الأموال المسروقة، إضافة إلى تهم أخرى سابقة. لكن المحلفين أوصوا بالرأفة بـ كومبيسون نظراً لحسن سلوكه ورفقته السيئة، والتخلي عن كافة المعلومات التي كانت ضدي. فحكم عليه بالسجن سبع سنوات، وأنا حكم عليّ بأربع عشرة سنة.

كنا في سفينة الاعتقال ذاتها، لكنني لم أستطع الوصول إليه لمدة طويلة، رغم محاولتي ذلك. أخيراً جئت خلفه وضربته على خده لأديره وأنهال عليه بضربة ساحقة، حين رأوني وألقوا القبض عليّ، تدبرت أمر الهروب من السفينة واختبأت وسط القبور بالقرب

من الشاطئ، وهناك شاهدت فتاي للمرة الأولى!

ومنك يا بني علمت أن كومبيسون طليق أيضاً في المستنقعات. أظن أنه فر خوفاً مني دون أن يعلم أنني خرجت إلى الشاطئ، فطاردته حتى ألقيت به أرضاً وهشمت وجهه. لم أهتم لنفسي، بل قررت جره إلى سفينة الاعتقال كأسوأ تدبير ألحقه به، حين قدم الجنود وقبضوا علينا معاً، قُيِّدت بالحديد وجرت محاكمتي ثانية، فحكم عليٍّ بالسجن مدى الحياة، لم أبقَ هناك مدى الحياة يا ولدي العزيز ويا صديق بيب العزيز، فها أنذا».

سألت بعد فترة صمت: «هل توفي؟»

«كن على يقين بأنه يأمل أن أكون أنا الذي توفيت، هذا إن كان على قيد الحياة. لم أسمع عنه شيئاً أبداً»

كان هربرت يكتب على غلاف كتاب، فدفعه خلسة نحوي بينما وقف بروفيس يدخن وعيناه تحدقان بالنار، فقرأت ما يلي:

«كومبيسون هو الذي تظاهر بأنه عشيق الآنسة هافيشام».

أغلقت الكتاب وهززت رأسي لهربرت، لكننا لم نتفوه بأي كلمة، ورحنا ننظر إلى بروفيس وهو يدخن قرب الموقد.

الفصل الرابع والعشرون
الخطوة المميتة

قررت أن أرى استيلا والآنسة هافيشام، أن أسافر مع بروفيس إلى الخارج. فذهبت إلى ريتشموند في اليوم التالي، لكن الخادمة أخبرتني بأن استيلا ذهبت إلى ساتيس هاوس.

انطلقت باكراً في الصباح التالي إلى المدينة، وحين وصلت العربة إلى البلو بور، رأيت بنتلي درامل خارجاً، وانزعجت كثيراً لرؤيته في المدينة لأنني أدرك تماماً سبب مجيئه إلى هناك.

دخلنا المقهى معاً، حيث انتهى من إفطاره وطلبت إفطاراً لي. كان لقاء مزعجاً للغاية، استدعى النادل وقال له: «هل حصاني جاهز؟»

«جيء به إلى الباب سيدي».

«انظر، إن السيدة لن تركب اليوم، فالطقس غير مناسب».

«حسناً، سيدي».

«ولن أتناول الغداء هنا لأنني سأتغدى لدى السيد».

«حسناً سيدي».

ثم رمقني درامل بنظرة، وبدا على وجهه تعبير انتصار أصابني في الصميم. ولم يخيم عليّ الارتياح إلا حين خرج.

اغتسلت وارتديت ملابسي وذهبت إلى ساتيس هاوس، كانت الآنسة هافيشام جالسة قرب الموقد، بينما كانت استيلا تجلس على وسادة عند قدميها وهي تعمل بالصوف.

أخبرت الآنسة هافيشام أنني اكتشفت هوية المحسن إليّ، فاعترفت بأنها جعلتني أقع في اعتقاد أنها هي المحسنة إليّ، قلت: «هل كان ذلك لطيفاً؟»

فصاحت الآنسة هافيشام وهي تضرب الأرض بعصاها وتثور غضباً على حين غرة: «من أنا، من أنا، بالله عليك، لأكون لطيفة؟»

ثم التفتُّ إلى استيلا قائلاً: «استيلا، تعلمين أنني أحبك، تعلمين أنني أحببتك كثيراً منذ زمن بعيد».

رفعت عينيها إليّ لدى مخاطبتها هكذا، لكن أصابعها تابعت الشغل بالصوف ونظرت إليّ بهدوء. فقلت: «كان عليّ أن أقول ذلك من قبل، لولا أخطائي طويلاً بالاعتقاد أن الآنسة هافيشام كانت تنوي تزويجنا من بعض، وبينما اعتقدت أنك لن تقوي على مساعد نفسك، فقد أحجمت عن البوح بذلك، لكن علي أن أقول ذلك الآن».

هزت استيلا رأسها، بينما بقيت على هدوئها تتابع الشغل بالصوف.

«أعرف، أعرف أن لا أمل لي باعتبارك من نصيبي يا استيلا. ما زلت أحبك. أحببتك منذ رأيتك في هذا البيت لأول مرة».

نظرت إليّ بهدوء تام بينما تابعت أصابعها العمل، وهزت رأسها ثانية ثم قالت بهدوء: «يبدو أن هناك عواطف لا أستطيع فهمها. فحين تقول إنك تحبني، أعرف ما الذي تعنيه لهجة التعبير، لكن

ليس أكثر من ذلك. فأنت لا تخاطب شيئاً في صدري، ولا تلامس شيئاً هناك. إنني لا أكترث بأي شيء تقوله. حاولت أن أنذرك بهذا، أليس كذلك؟».

فقلت بلهجة تعيسة: «بلى».

«بلى، لكنك لم تتعظ، اعتقاداً منك أنني لا أعني ما أقول، والآن ألم تعتقد ذلك؟»

«اعتقدت وكان أملي ألا يكون ذلك قصدك، فأنت صغيرة، وغير مجربة، وجميلة. استيلا! ليس ذلك في الطبيعة، لا شك».

«إنه من طبيعتي، إنه من الطبيعة التي تكونت بداخلي».

ثم سألتها إن كانت حقاً تستحث بانتلي درامل، وتركب الجياد بزفقته، وإن كان سيتناول الغداء معها في ذلك النهار بالذات.

لم تندهش كثيراً لمعرفتي بذلك، بل أجابت تقول: «هذا صحيح».

«لا يمكن أن تحبيه يا استيلا!»

«ماذا قلت لك؟ هل ما زلت تعتقد، رغم ذلك أنني لا أعني ما أقول؟»

«لن تتزوجيه أبداً يا استيلا»

نظرت استيلا نحو الآنسة هافيشام، ثم تأملت لحظة وشغل الصوف يديها، وقالت: «ولم لا أخبرك بالحقيقة؟ فأنا سأتزوجه».

وضعت وجهي بين يدي، لكنني استطعت تمالك نفسي أكثر مما توقعت، نظراً لعذابي الذي سببه سماعي الكلمات التي قالتها.

«استيلا، عزيزتي، عزيزتي، لا تدعي الآنسة هافيشام تدفع بك إلى هذه الخطوة المميتة. ضعيني جانباً إلى الأبد وقد فعلت ذلك، أعرف هذا جيداً لكن امنحي نفسك لشخص يستحقك أكثر من درامل. فالآنسة هافيشام تمنحك له كأعظم إهانة وتجريح يصيب رجالاً أفضل منه ممن هم معجبون بك، ويصيب القلة الذين يحبونك».

قالت بصوت ألطف: «سوف أتزوجه، فالتحضيرات لزفافي قيد الإنجاز، وسأتزوجه في القريب العاجل. لماذا تذكر اسم والدتي بالتبني بأسلوب التجريح؟ أنا التي قمت بذلك».

«قمت بذلك يا استيلا، لترمي بنفسك على شخص متوحش؟ مثل هذا المتوحش الحقير الأحمق».

فقالت استيلا: «لا تخش أن أكون نعمة عليه. فلن أكون كذلك. اقترب! هذه يدي، فهل نفترق على ذلك أيها الفتى أو الرجل الخيالي؟».

أجبتها ودموعي المريرة تتدفق على يديها: «أوه يا استيلا، كيف أستطيع أن أراك زوجة درامل؟»

أجابت: «هراء هراء، فهذا سيزول بلمح البصر».

«أبداً يا استيلا». «ستخرجني من أفكارك في أسبوع»

«من أفكاري! بل أنت جزء من وجودي، جزء من نفسي. أوه، ليباركك الله، ليسامحك الله!»

انتهى كل شيء ومضى!

انتهى الكثير وولى، حتى إنني حين خرجت من البوابة، بدا ضوء النهار أغمق لوناً مما كان عندما دخلت. سرت الطريق كله إلى لندن، إذ لم أستطع العودة إلى المنزل ورؤية درامل. ولم أستطع تحمل الجلوس في العربة ليوجه إلي الحديث.

كان الوقت تجاوز نصف الليل حين عبرت جسر لندن. وحين وصلت بوابة منزلي، سلمني الحارس الليلي ورقة وأخبرني أن حامل الرسالة الذي جاء بها يرجوني قراءتها على ضوء القنديل.

أخذت الرسالة وقد دهشت كثيراً لهذا الطلب. فتحتها بينما كان الحارس يمسك بقنديله، وقرأت ما بداخلها بخط ويميك: «لا تذهب إلى البيت».

الفصل الخامس والعشرون
تدابير السلامة

استأجرت عربة واتجهت إلى فندق في ((كوفنت غاردن)) حيث أمضيت الليلة هناك. وباكراً في الصباح التالي، ذهبت لرؤية ويميك في منزله. رحب بي وشرح لي السر. فقد سمع في سجن نوغايت أن بروفيس عرضة للشك، وأن شقتي في الغاردن كورت وضعت قيد المراقبة، فاعتبر أن من الضروري إعلامي بذلك، واكتشف كذلك أن كومبيسون كان في لندن، فرأى أن من الأسلم أن يبقى بروفيس مختبئاً في لندن بعض الوقت، وألا يحاول السفر قبل أن يخف البحث عنه. وحين لم يجدني في المنزل، ذهب إلى هربرت لدى كلاريكر واتفقا بينهما على تدابير مرضية لتأمين سلامة بروفيس،

فأسكنوه مؤقتاً في طابق أعلى مفروش قرباً من النهر حيث تسكن كلارا صديقة هربرت مع والدها المريض. كانت خطة جيدة، كما أخبرني ويميك لأسباب ثلاثة.

أولاً، المنزل بعيد عن مسكني، ولن يبحث أحد عني هناك. ثانياً،

يمكنني الاطمئنان على سلامة بروفيس من خلال هربرت، دون الذهاب إلى هناك شخصياً. ثالثاً، حين يصبح من الأمان نقله على متن سفينة أجنبية، فسيكون هناك على أتم الاستعداد.

جعلني ذلك أشعر بسعادة أكثر، فشكرت ويميك مراراً وتكراراً، ثم نصحني بالبقاء في منزله إلى أن يحل الظلام، وتركني أستمتع برفقة والده العجوز.

وحين حل الظلام، خرجت أبحث عن مكان يسمونه: ((ميل بوند بانك)). وبعد أن ضللت الطريق مرات عدة اهتديت إليه بالصدفة. قرعت الباب ففتحت لي الباب امرأة مسنة بهية الطلعة، وما لبث أن جاء هربرت واصطحبني بصمت إلى غرفة الاستقبال، ثم قال: «كل شيء على ما يرام يا هاندل، وهو راضٍ جداً رغم توقه لرؤيتك، فتاتي العزيزة مع والدها (سمعته يصيح في الطابق الأعلى)، فإن انتظرت حتى تهبط فسأعرفك إليها، ثم نصعد إلى بروفيس».

وبينما نحن نتحدث بنبرة هادئة، انفتح باب الغرفة ودخلت فتاة نحيلة جميلة للغاية، سوداء العينين، تبلغ نحو العشرين، تحمل سلة بيدها. أخذ هربرت منها السلة بحنان وقدمها لي باسم كلارا.

قال: «انظر، ها هو عشاء كلارا، يقدمه والدها كل ليلة. فهو يصر على الاحتفاظ بجميع المؤن في غرفته وتقديمها بنفسه».

كان بروفيس يسكن في غرفتين في الطابق الأعلى، فلم يعبر عن أي خوف ولا ظهر أنه يشعر بذلك،

أخبرته كيف سمع ويميك في سجن نيوغايت بأن الشكوك تحوم حوله، وأن شقتي مراقبة، وأن ويميك نصح بإخفائه لبعض الوقت، وبقائي بعيداً. وأضفت أنه عندما يحين موعد سفره، فسأذهب معه أو أتبعه عن كثب، حسب ما تقتضيه السلامة.

ثم قدم هربرت اقتراحاً جيداً، فقال: «كلانا يجيد قيادة المراكب يا هاندل ويمكننا عبور النهر عندما يحين الوقت المناسب. ألا تعتقد أن من الأفضل لو بدأنا الآن بالاحتفاظ بقارب ومارسنا عادة التجذيف في النهر ذهاباً وإياباً؟ وحين تكون لك تلك العادة، من سيلاحظ أو يكترث بذلك؟»

أعجبتني خطته، وكذلك بروفيس، فاتفقنا على تنفيذها. كما اتفقنا على أن يسدل بروفيس ستارة نافذته المشرفة على النهر كلما رآنا قادمين في قاربنا وأن الأمور تسير بشكل صحيح. ثم تمنينا له ليلة سعيدة وغادرناه.

حين استأذنت مغادراً الفتاة اللطيفة الجميلة ذات العينين السوداوين، والمرأة الحنونة التي تعيش في بيتها، فكرت باستيلا وبفراقنا، فذهبت إلى البيت في حزن عميق.

حصلت على القارب في اليوم التالي، فجيء به إلى سلم التامبل، وأرسي بحيث أستطيع الوصول إليه خلال دقيقة أو دقيقتين. ثم بدأت أخرج للتدريب والتمرين، بمفردي أحياناً، وأحياناً برفقة هربرت، فلم يلاحظني أحد كثيراً بعدما خرجت بضع مرات. في البداية، لم أجذف بعيداً، لكن سرعان ما رحت أبتعد إلى ميل بوند بانك. وكان هربرت يرى بروفيس ثلاث مرات على الأقل في الأسبوع، ولم يحمل إليّ أي أخبار مقلقة. لكنني بقيت أعلم أن هناك سبباً للخوف، ولم يسعني التخلص من فكرة أنني مراقب، إنما لم يكن بالمستطاع فعل شيء، سوى انتظار إشارة من ويميك.

الفصل السادس والعشرون
منذ عشرين سنة

في أحد الأيام بينما كنت أمشي ببطء قبل الغداء، التقيت السيد جاغرز ودعاني لتناول الغداء معه في منزله في شارع جيرارد. كنت على وشك الاعتذار عندما قال إن ويميك سيأتي، قبلت الدعوة وذهبنا معاً إلى مكتبه حيث أنهى عمل اليوم، ثم اصطحبنا ويميك واستقلينا عربة إلى منزل السيد جاغرز.

ما إن وصلنا هناك حتى قدم الغداء. فلفتت انتباهي مدبرة المنزل، امرأة في الأربعين، وكنت قد رأيتها في منزل جاغرز في زيارة سابقة. كانت طويلة في غاية الشحوب، ولها عينان كبيرتان متعبتان، وشعر غزير كثيف. في هذه المناسبة، كانت تضع طبقاً على الطاولة عند كوع سيدها حين خاطبها هذا قائلاً إنها بطيئة. لاحظت حركة من أصابعها حين تكلمت معه. كانت حركة تشبه الحياكة، وقفت تنظر إليه وهي لا تدرك إن كان عليها الذهاب أو أن لديه مزيداً يقوله لها. كانت نظرتها متلهفة، ولم أشك تماماً في أنني

شاهدت مثل هاتين العينين وهاتين اليدين، وفي مناسبة جرت مؤخراً أذكرها جيداً.

صرفها فانسلت خارج الغرفة، لكن صورتها بقيت أمامي بوضوح وكأنها لا تزال بشخصها هناك. نظرت إلى تلك اليدين، نظرت إلى تلك العينين، نظرت إلى الشعر الغزير، وقارنتها بعينين ويدين وشعر آخر أعرفه، وبما يمكن لهذه أن تكونه بعد عشرين سنة مع زوج متوحش وحياة عاصفة. فشعرت تمام اليقين أن تلك الفتاة هي والدة استيلا.

بعد انتهاء الغداء، استأذنت مع ويميك بالخروج باكراً وغادرنا معاً. وفي الطريق، استوضحت من ويميك ما يعرفه عنها. وهذا ما أخبرني به:

«منذ نحو عشرين سنة، اتُّهمت هذه المرأة بالقتل ثم بُرئت ساحتها. كانت صبية في غاية الجمال، وأعتقد أن دماً غجرياً يجري في عروقها. دافع السيد جاغرز عنها في المحكمة وتولى القضية بشكل مذهل. كانت القتيلة امرأة تكبرها بعشر سنوات، وتفوقها قوة بكثير. كانت مسألة غيرة. وكان سبق لهذه المرأة أن تزوجت في سن مبكرة من رجل متسكع. وجدت القتيلة في حظيرة ماشية، حيث حصلت مقاومة عنيفة أو ربما قتال، وأصيبت بالكدمات والخدوش والتمزيق، ثم أمسك برقبتها أخيراً وخنقت.

أما المتهمة فقد أصيبت بكدمة أو اثنتين، لكن ظهري كفيها كانا ممزقين، والسؤال هو: هل حصل ذلك بالأظفار؟ لقد أظهر السيد جاغرز أنها عبرت طريقاً شاقاً عبر أشواك كثيرة، وبالفعل فقد عثر على أشواك عالقة في جلدها. كانت النقطة الأشد التي أتى بها هي التالية. فقد اشتبهوا كثيراً بأنها عمدت في الوقت الذي حصلت فيه

الجريمة إلى قتل طفلتها من ذلك الرجل البالغة من العمر ثلاث سنوات لكي تنتقم منه، فقال السيد جاغرز في معرض الدفاع عنها: «لستم تحاكمونها لأنها قتلت طفلتها، لم لا تفعلون ذلك؟ «وعلى العموم، فقد برع السيد جاغرز على هيئة المحلفين فخضعوا له».

«وهل هي تعمل لديه منذ ذلك الحين؟»

قال ويميك: «أجل»

فسألته: «هل تذكر جمبس الطفل؟»

«قيل إنها فتاة».

تبادلنا تحية المساء، وذهبت إلى المنزل بمادة جديدة لأفكاري، رغم أنني لم أسترح من الأفكار القديمة بعد.

كانت الآنسة هافيشام قد بعثت إليّ برسالة صغيرة تفيد بأنها تود أن أجتمع بها بشأن قضية عمل ذكرتها لها. فذهبت في اليوم التالي إلى ساتيس هاوس. أما القضية المشار إليها فهي تتعلق بهربرت. وقد سبق وأن أخبرتها بأنني أريد مساعدة صديق، لكنه لم يعد بوسعي متابعة ذلك لأسباب عليّ التكتم بها. فسألتني عن مقدار المبلغ الذي أحتاجه، فقلت: «تسعمئة جنيه».

فسألتني: «وهل يطمئن فكرك أكثر لو أعطيتك المال لهذه الغاية؟»

«سيطمئن أكثر بكثير».

فكتبت إيعازاً إلى السيد جاغرز بأن يدفع لي المبلغ المطلوب. كانت شديدة الندم للتعاسة التي سببتها لي، فشدت على يدي وبكت فوقها، ثم صاحت بيأس: «آه، ما الذي فعلته! ما الذي فعلته!»

«إن كنت تقصدين ما فعلته في أذيتي، دعيني أجب: فعلت القليل القليل. فقد كنت سأحبها مهما كانت الظروف، وهل تزوجت؟»

«أجل».

لم يكن السؤال ضرورياً، فالوحشة المستجدة في المنزل الوحش أخبرتني بذلك. ثم قالت: «لو تعرف قصتي، لأشفقت عليَّ، وتفهمتني».

أجبتها: «أعرف قصتك يا آنسة هافيشام، وقد أثارت حزني العميق. هل لي أن أسألك عن طفولة استيلا؟ ابنة من هي؟»

هزت برأسها

«ألا تعرفين؟»

هزت برأسها.

«لكن هل السيد جاغرز هو الذي أحضرها إلى هنا أم أرسلها إلى هنا؟».

«أحضرها إلى هنا».

«هل لي أن أسأل كم كان عمرها آنذاك؟ «

«سنتان أو ثلاث، شخصياً إنها لا تعرف شيئاً، سوى أنها تُركت يتيمة فتبنيتها».

اقتنعت تماماً بأن تلك المرأة هي والدتها، ولم يعوزني دليل لترسيخ هذه الحقيقة في ذهني.

لم أكن آمل تحقيق المزيد من تمديد الزيارة؟ فقد نجحت في مسعاي من أجل هربرت، كما أن الآنسة هافيشام أخبرتني بكل ما تعرفه عن استيلا، وهكذا افترقنا.

الفصل السابع والعشرون
غيرة وانتقام

قام هربرت بزيارات عدة إلى المنزل المحاذي للنهر حيث تقيم كلارا مع والدها بروفيس. في إحدى الأمسيات، أخبرني قائلاً: «جلست مع بروفيس ساعتين في الليلة الماضية يا هاندل. أخبرني بالمزيد عن حياته. فتحدث عن امرأة كانت له معها مشكلة كبيرة. كانت فتاة غيوراً وتحب الانتقام إلى أقصى درجة يا هاندل».

«إلى أي درجة»؟

«القتل». «كيف قتلت؟ ومن»؟

«امرأة أخرى أقوى منها، في حظيرة ماشية، حيث جرى عراك ووجدت الضحية مخنوقة، دافع السيد جاغرز عن القاتلة، وكان لشهرة هذا الدفاع من اسمه معروفاً بالدرجة الأولى لدى بروفيس».

«وهل أدينت المرأة بالجرم»؟

«كلا، بل برئت ساحتها. ورزقت الصبية المبرأة وبروفيس طفلة صغيرة كان بروفيس مولعاً بها كثيراً. وعشية تلك الليلة بالذات حين

خنقت التي كانت تثير غيرتها، جاءت الصبية إلى بروفيس وأقسمت أنها ستقتل الطفلة، وأنه لن يراها ثانية، ثم اختفت».

«وهل نفذت المرأة قسمها»؟

«بالطبع يا ولدي لقد قال كل ذلك».

عانت والدة الطفلة مدة خمس سنوات من الحياة الأليمة التي وصفها لنا، ويبدو أنه شعر بالإشفاق عليها، لذا فخشية أن يستدعى للشهادة بشأن الطفلة المقتولة ويكون سبباً في موت الأم، فقد أخفى نفسه بعيداً عن الناس وعن المحاكمة، ولم يتطرق الناس إلى ذكره سوى بأنه رجل يدعى آبل كان مثاراً للغيرة. لكنها اختفت بعد تبرئتها، وهكذا فقدت الطفلة ووالدتها. أما الشرير كومبيسون، فحين علم أنه متخفٍ حين ذاك، وبالأسباب التي تدفعه لذلك، احتفظ بالمعلومات كوسيلة لإفقاره وتشغيله في الأعمال المضنية».

«وهل أخبرك متى حدث ذلك»؟

«منذ عشرين سنة تقريباً».

«انظر إليّ يا هربرت، المسني، ألا تخشى بأنني محموم»؟ «كلا يا ولدي العزيز، بل أنت مثار، لست سوى نفسك». «أعلم أنني لست سوى نفسي، والرجل الذي يختبئ عند النهر هو والد استيلا».

الفصل الثامن والعشرون
الرسالة الغريبة

في صباح يوم اثنين، حين كنت أتناول الإفطار مع هربرت، تلقيت الرسالة التالية من ويميك: «أحرق هذه حالما تقرؤها. في مطلع الأسبوع، أو لنقل يوم الأربعاء، يمكنك أن تفعل ما تعرفه، إن أحببت المحاولة، والآن أحرقها».

حين أظهرت الرسالة إلى هربرت ووضعتها في النار، رحنا نفكر ماذا ينبغي فعله.

قال هربرت: «فكرت بذلك مراراً وتكراراً، أعتقد أن لدي طريقة أفضل من اتخاذ بحْر التايمز. خذ ستارتوب. إنه شخص طيب وهو ماهر ومولع بنا، كما أنه متحمس وأمين للغاية، هل تذهب مع بروفيس؟»

«من دون شك»

«إلى أين؟»

لم يكن يهم إلى أين سنخرج طالما أن بروفيس سيخرج من

انجلترا، أي مركب بخاري خارجي نصادفه ويأخذنا على متنه سيفي بالغرض. كانت خطتنا النزول إلى النهر قبل يوم من مغادرة ذلك المركب لندن، والانتظار في مكان هادئ إلى أن يصبح بوسعنا التجذيف إليه.

وافق هربرت، فخرجنا بعد الإفطار نستعلم عن مواقيت انطلاق المراكب البخارية، فعلمنا أن مركباً إلى هامبورغ يناسب غرضنا تماماً. كان ستارتوب في غاية الاستعداد لمساعدتنا، فسيجذف هو وهربرت، بينما أتولى أنا الدفة. وكان على هربرت تحضير بروفيس للهبوط إلى ضفة النهر يوم الأربعاء حين يرانا نقترب، وليس قبل ذلك.

بعد إتمام هذه الترتيبات عدت إلى البيت، ولدى فتح باب الشقة، وجدت رسالة في الصندوق موجهة إليّ، تقول:

«إن كنت لا تخشى المجيء إلى المستنقعات الليلة أو ليلة الغد في التاسعة، وأن تأتي إلى المنزل الصغير المجاور لمحرقة الكلس، فالأفضل أن تأتي. إن كنت تريد معلومات بشأن بروفيس، فالأفضل أن تأتي دون أن تخبر أحداً، أو تضيع الوقت. عليك المجيء بمفردك».

كان ذهني مثقلاً بما فيه الكفاية قبل وصول هذه الرسالة الغريبة، فلم أعرف ماذا أفعل الآن. تركت رسالة إلى هربرت أخبرته فيها أنني قررت القيام بزيارة قصيرة للآنسة هافيشام، وأنني استقللت العربة إلى المدينة.

حل الظلام قبل وصولي إلى هناك، تجنبت الإقامة في البلو بور، فنزلت في نزل أصغر في المدينة، وطلبت بعض العشاء، وبعد أن تناولته ارتديت معطفي وتوجهت إلى المستنقعات مباشرة.

كانت ليلة مظلمة، تهب فيها رياح حزينة، وكانت المستنقعات موحشة للغاية. وبعد سير طويل، شاهدت نوراً في المنزل الصغير القريب من الكلاسة. أسرعت نحوه وقرعت الباب. لم يكن هنالك جواب، فقرعت ثانية، كذلك لم يأتِ جواب، عندئذ جربت المْزلاج فارتفع تحت يدي وانفتح الباب. نظرت إلى الداخل، فرأيت شمعة مضاءة على طاولة ومقعد، وسرير. ناديت بصوت مرتفع: «هل يوجد أحد هنا؟ «لكن صوتاً لم يجب على ندائي، ناديت ثانية، وحين لم ألقَ جواباً، خرجت لا أدري ماذا أفعل.

كانت بدأت تمطر، فعدت إلى المنزل ووقفت عند المدخل. ثم أُطفئت الشمعة فجأة، والشيء الآخر الذي علمته هو أن أحدهم ألقى بحبل فوق رأسي وأوثق يدي إلى جانبي. سمعت صوتاً يقول: «والآن، قبضت عليك».

صرخت مقاوماً: «ما هذا؟ من هذا؟ النجدة! النجدة!»

فإذا بيد رجل قوي تكمم فمي لكبت صياحي، بينما تم إحكام وثاقي إلى سلم على بعد بضع بوصات عن الحائط. قال الصوت: «والآن، اصرخ ثانية فأقتلك».

ثم أشعل الرجل ثقاباً وأنار الشمعة، فرأيت أنه أورليك. قال بعد أن نظرنا إلى بعضنا لفترة من الزمن: «ها قد قبضت عليك».

«فك وثاقي، دعني أذهب».

«آه، سأدعك تذهب. سأدعك تذهب إلى القمر. سأدعك تذهب إلى النجوم، إنما في الوقت المناسب».

جلس يهز برأسه نحوي، ثم وضع يده بجانبه في الزاوية وتناول مسدساً، وقال وهو يصوبه نحوي: «هل تعرف هذا؟ هل تعرف أين شاهدته من قبل؟ تكلم أيها الذئب».

أجبت: «أجل». (فقد شاهدته في غرفته في ساتيس هاوس، حين كان يشتغل حارساً للبوابة هناك).

«كنت السبب في خسارة ذلك المكان. كنت السبب. تكلم!»

«وماذا كان بمقدوري أن أفعل غير ذلك؟»

«فعلت ذلك. وهذا يكفي، من دون زيادة. كيف تجرأت على التدخل بيني وبين الشابة التي أحبها؟»

«متى فعلت ذلك؟»

«متى لم تفعل؟ أنت الذي كنت تسيء إلى سمعة أورليك العجوز أمامها».

«أنت الذي منحتها لنفسك. أنت الذي أكسبتها لنفسك. ماذا ستفعل بي؟»

«سأقبض على حياتك. لن أبقي على خرقة منك، لن أبقي على عظمة منك على الأرض. سألقي بجثتك في الفرن المشتعل».

كان يشرب وقد احمرت عيناه، وحول رقبته كان يتدلى زق معدني. فقربه من شفتيه ليشرب ثانية، ثم قال: «أيها الذئب، سأخبرك شيئاً. أنا الذي صرع شقيقتك».

فقلت: «أنت الذي فعل ذلك أيها السافل».

«وأنا أخبرك بأنه من صنيعك. كنت صاحب الخطوة، بينما كان أورليك العجوز يتعرض للإهانة والضرب، والآن ستدفع ثمن ذلك»

شرب ثانية وازداد في شراسته، ثم تناول الشمعة وقربها مني حتى أبعدت وجهي لأصونه من اللهب، وما لبث أن توقف فجأة، فشرب من جديد وانحنى للأسفل، فرأيت يده تمسك بمطرقة حجرية لها يد طويلة وغليظة. ودون أن أنطق بكلمة رجاء إليه، صرخت عالياً ورحت أصارع بكل ما أوتيت من قوة. في تلك اللحظة بالذات،

سمعت صيحات استجابة ورأيت أشخاصاً ووميض ضوء يتسرب من الباب، ثم سمعت أصواتاً ورأيت أورليك يتعارك مع عدد من الرجال. شاهدته يفر منهم ويختفي في عتمة الليل.

فقدت الوعي بعد ذلك، وحين أفقت وجدت نفسي بلا وثاق، ممدداً على الأرض في المكان نفسه، ورأسي ملقى على ركبة شخص بينما كان آخر منحنياً فوقي. كانا هربرت وستارتوب.

ضمدا ذراعي التي أصيبت أثناء صراعي في تحرير نفسي. وبعد قليل كنا في طريق العودة، فأخبرني هربرت كيف جاءا لإنقاذي. فقد سقطت مني الرسالة في الغرفة إذ كنت على عجلة من أمري، فوجدها هربرت بعد أن جاء هو وستارتوب بعد خروجي. أثارت لهجة الرسالة قلقه، خاصة أنها لا تنسجم مع الرسالة المستعجلة التي تركتها له فانطلق مع ستارتوب، واستعانا بدليل للمجيء إلى المنزل الصغير المجاور للكلاسة.

حين سمع هربرت صراخي، استجاب له واندفع يتبعه الاثنان.

ونظراً لقرب حلول نهار الأربعاء، قررنا العودة إلى لندن في تلك الليلة. كان قد أطل النهار حين وصلنا، فذهبت إلى الفراش حالاً ورقدت هناك طيلة النهار. حافظ هربرت وستارتوب على هدوئي، وأبقيا على ذراعي بالضماد باستمرار، وقدما لي بعض المشروبات المنعشة، وكنت كلما أغط في النوم أستيقظ بإجفالة لاعتقادي أن الفرصة قد ولت في إنقاذ بروفيس.

الفصل التاسع والعشرون
المجرم العائد

صباح الأربعاء كان أحد أيام شهر آذار/مارس حين تشع الشمس بحرارة وتهب الرياح باردة. فاصطحبنا معاطفنا البحرية القصيرة وأخذت معي حقيبة. أما أين سأذهب وماذا سأفعل، أو متى سأعود، فكانت بالنسبة إليّ مجهولة تماماً.

سرنا ببطء نحو درجات التامبل، ومكثنا نتسكع هناك وكأننا لم نصمم بعد على النزول إلى الماء. ثم صعدنا القارب وانطلقنا، تولى هربرت وستارتوب التجذيف، وتوليت أنا أمر الدفة.

كانت خطتنا كما يلي: نعتزم الإبحار في النهار حتى المساء، فنكون آنذاك بين (كانت) و (أسيكس) حيث يعرض النهر ويصبح منزوياً، ويقل السكان على ضفتيه، وحيث الحانات المنعزلة تنتشر هنا وهناك فنستطيع اختيار إحداها نلجأ إليها كموطئ للراحة. وكنا نعتزم المكوث هنا طيلة الليل. أما المركب البخاري المتوجه إلى هامبورغ، فإنه سيغادر لندن نحو التاسعة من صباح الخميس،

فكان علينا معرفة الوقت لترقبه حيثما نكون فنناديه.

أنعشني الهواء البارد وأشعة الشمس وحركة الإبحار في النهر، بالأمل متجدداً. ما لبثنا أن مررنا بجسر لندن القديم، وبينما كنت أجلس في القارب، كان بإمكاني رؤية المنزل حيث كان يقيم بروفيس، ودرجات المرسى المجاور. قال هربرت: «هل هو هناك»؟

قلت: «ليس بعد. بلى، إني أراه الآن! مهلاً يا هربرت، المجاذيف».

لامسنا الدرجات برفق للحظة واحدة صعد بها القارب وانطلقنا من جديد. أحضر معه معطفاً بحرياً فضفاضاً وحقيبة من القماش الأسود فبدا وكأنه بحر نهري، وفق ما كنت أتمناه.

وضع ذراعه على كتفي بينما هو يجلس وقال: «ولدي العزيز! ولدي المخلص العزيز، حسناً فعلت. شكراً لك، شكراً لك!»

كان الأقل قلقاً بيننا. ليس لأنه لم يكترث، فلقد أخبرني أنه يأمل العيش ليراني واحداً من أفضل الرجال في بلد أجنبي، لكنه لم يكن ليزعج نفسه بالخطر قبل أن يداهمه.

مكثنا نجذف طوال النهار، إلا حين نعود نحو الشاطئ وسط الحجارة الزلقة نأكل ونشرب. لكن الليل كان يخيم بسرعة، فرحت أجيل النظر بسرعة بحثاً عن أي شيء يشبه المنزل.

أخيراً شاهدنا ضوءاً ومنزلاً، فعدنا إلى الشاطئ وسحبنا القارب لتمضية الليل. وجدنا أن المكان هو حانة، كانت قذرة للغاية، إنما كان في المطبخ موقد جيد، وكان هناك بعض البيض واللحم وشتى أنواع المشروبات لنشرب. كذلك كانت هناك غرفتان بسريرين مزدوجين يناسبان أربعتنا، فحضرنا وجبة ممتازة على الموقد ثم أوينا إلى الفراش.

استلقيت وأنا أرتدي معظم ثيابي، فنمت ملء جفوني لبضع

ساعات، عندما استيقظت نظرت إلى النافذة فوجدت رجلين ينظران إلى قاربنا. مرّا تحت النافذة، وبينما كان الظلام ما زال مخيماً لم أستطع رؤيتهما ثانية، فعدت إلى النوم من جديد. نهضنا باكراً وأخبرتهم بما رأيت، فاتفقنا أن نسير أنا وبروفيس على سبيل الحيطة إلى نقطة معينة، ثم ننتقل إلى القارب من هناك.

نُفذت الخطة، وحين أصبح القارب بمحاذاتنا، صعدنا إليه وجذفنا في أثر السفينة البخارية.

كانت الساعة الواحدة والنصف حين لمحنا بخارها، ثم ما لبثنا أن رأينا خلفها دخان سفينة أخرى. ولما كانتا تقبلان علينا بكامل سرعتهما، فقد جهزنا الحقائب وودعنا هربرت وستارتوب.

ثم شاهدت زورقاً بأربعة مجاديف ينطلق من الشاطئ على مسافة قريبة أمامنا، ويسير في الاتجاه نفسه. باتت السفينة الآن قريبة جداً، وما لبث الزورق أن عبر طريقنا وأصبح بموازاتنا. كان بالإضافة إلى المجذفين رجلان، أحدهما ضابط يتولى الدفة، أما الآخر الذي كان يرتدي ثياباً تشبه ثياب بروفيس، فبدا وكأنه ينكمش ويهمس إلى رجل الدفة وهو ينظر إلينا.

تمكن ستارتوب بعد دقائق أن يميز أي سفينة هي الأولى، فقال لي بصوت منخفض: «هامبورغ». كانت تقترب نحونا بسرعة بالغة، وراحت ضربات مجاذيفها تعلو أكثر فأكثر. وشعرت وكأن خيالها بات فوقنا، حين نادى الرجال في الزورق لنا، فقال الرجل الذي يتولى الدفة: «لديكم مجرم عائد. ذلك هو الرجل المحتجب بالمعطف الفضفاض. اسمه آبل ماغويتش، وأحياناً بروفيس. إني أدعو هذا الرجل أن يستسلم؛ وأدعوكم أن تساعدونا»

في تلك اللحظة، جعل زورقه يصطدم بقاربنا، وأمسك المجذفون

بجانب قاربنا قبل أن ندرك ما كانوا يفعلون، مما سبب جلبة شديدة على متن السفينة، فسمعتهم ينادوننا، وسمعت الأمر يصدر بإيقاف المجاذيف، سمعتها تتوقف، لكنني شعرت وكأن السفينة تسير فوقنا. في تلك اللحظة، رأيت رجل الزورق يلقي بيده على كتف السجين، ثم رأيت بروفيس يقفز وينتزع المعطف عن الرجل المنحني، فكان وجهه وجه المجرم الآخر القديم. رأيته يتراجع بنظرة من الخوف الشديد، وسمعت صرخة شديدة على متن السفينة ورشة صاخبة في الماء، فأحسست بالمركب يغرق تحتي. نُقلت من ثم إلى الزورق، حيث كان هربرت وكذلك ستارتوب. لكن مركبنا اختفى كما اختفى المجرمان.

ما لبث أن شوهد شيء غامق في الماء، ولما اقترب أكثر، تبين لي أنه ماغويتش، جاء يسبح. فنقل إلى متن الزورق وقيدت يداه ورجلاه في الحال.

استمر البحث الدقيق عن المجرم الآخر، لكن الجميع عرفوا أنه غرق، فجذفوا نحو الحانة التي غادرناها مؤخراً، وهناك تسنى لي إحضار بعض الحاجيات إلى ماغويتش الذي تلقى إصابة بالغة في الصدر وأصيب بجرح عميق في الرأس. أخبرني أنه اعتقد أنه انزلق من تحت السفينة، وأنه لقي صدمة في رأسه أثناء الصعود. حينما وضع يده على كومبيسون، وقف هذا وتهاوى إلى الوراء، فسقطا عن متن الزورق معاً. ثم جرى عراك تحت الماء، لكن بروفيس حرر نفسه وسبح بعيداً.

حين استأذنت الضابط بتغيير ملابس السجين المبتلة، بعد شراء أي ملابس أستطيع الحصول عليها من المنزل، أذن لي بذلك، موضحاً أن مسؤوليته هي التدقيق في أي شيء يخص السجين.

وهكذا انتقلت المحفظة التي كانت بحوزتي فيما مضى إلى يد القائد. بقينا في النزل حتى تراجع المد، فنقل ماغويتش إلى الزورق ووضع على متنه. كان على هربرت وستارتوب العودة براً إلى لندن بأقصى سرعة ممكنة. وشعرت بأن مكاني هو بجانب بروفيس مادام أنه على قيد الحياة. فقد تلاشى شعوري بالكراهية تجاهه ولم أعد أرى فيه سوى الرجل الذي عمل ليحسن إليّ، وشعر نحوي بالمحبة والعرفان بالجميل. لم أر فيه سوى رجل أفضل بكثير مما كنت تجاه جو.

عندما رجعنا إلى لندن، أخبرته بمدى الحزن الذي ينتابني حين أفكر في أنه عاد إلى بلده من أجلي. فأجاب: «يا بني، إنني في غاية الرضا لأنني جربت حظي فقد رأيت ولدي، ويستطيع أن يكون سيداً من دوني».

كلا. لقد فكرت في ذلك. كلا. كنت أعلم أنه نظراً لإدانته في الحكومة ستأخذ ممتلكاته. لكن لا ينبغي أنه يعلم أن آماله في إثرائي قد تلاشت.

الفصل الثلاثون
عقاب العودة

في تلك الفترة الكئيبة من حياتي عاد هربرت إلى المنزل ذات مساء، وقال إنه سيتركني قريباً. فهو ذاهب إلى القاهرة لبعض الأعمال. سألني إذا ما كنت فكرت في مستقبلي، وحين أخبرته أنني لم أفعل، قال: «في فرعنا بالقاهرة يا هاندل، إننا بحاجة إلى..».

شعرت بأنه لم يشأ قول الكلمة الصحيحة، فقلت: «كاتب».

«كاتب، ولعله يصبح شريكاً بعد فترة وجيزة. والآن يا هاندل، هل تأتي؟»

شكرته بحرارة، لكنني قلت إنني لست متأكداً من الالتحاق به مثلما تلطف وعرض عليّ. فقال إنه سيترك المسألة معلقة لستة أشهر، أو حتى سنة، إلى أن اتخذ قراري. وسر كثيراً حين اتفقنا على هذا التدبير، وقال إنه سيجرؤ الآن بإعلامي أنه يعتقد أن عليه المغادرة في نهاية الأسبوع.

ودعت هربرت نهار السبت من ذلك الأسبوع، وكان قلبه يعتمر

بالأمل المشرق، لكنه كان حزيناً وآسفاً لمغادرتي. بعد ذلك عدت إلى منزلي الموحش.

اضطجع بروفيس في السجن تحت وطأة المرض الشديد ينتظر محاكمته طيلة الوقت وراحت صحته تسوء وتضعف منذ أن أُغلق باب السجن. حان موعد المحاكمة فسمح له بالجلوس على كرسي في المحكمة، وسمح لي بالوقوف إلى جانبه خارج سجن الاتهام، والإمساك بيده. كانت المحاكمة قصيرة وواضحة جداً، وقيل ما يمكن أن يقال عنه في الدفاع عنه كيف اتبع عادات كادحة واغتنى وفق ما يمليه القانون والضمير. لكن الحقيقة بقيت في أنه عاد إلى إنجلترا، فكانت عقوبة عودته هي الموت، وعليه الاستعداد للموت. ورحت أتمنى وأصلي بإخلاص أن تكون وفاته بسبب المرض.

وبينما تمر الأيام، رأيت تحولاً عظيماً لم ألحظه لديه من قبل. فسألته ذات يوم: «هل تعاني من الألم الشديد اليوم؟»

«لا أشكو من أي ألم يا ولدي»

«إنك لا تشكو أبداً»

كان ينطق بكلماته الأخيرة، ابتسم ورفع يدي ووضعها على صدره.

«عزيزي ماغويتش، يجب أن أخبرك الآن أخيراً. هل تفهم ما أقول؟».

ضغط على يدي بلطف.

«كانت لك طفلة أحببتها وفقدتها»

ضغط على يدي بشدة أكثر.

« عاشت ولقيت أصدقاء أشداء. إنها تعيش الآن، وهي سيدة وفي غاية الجمال. وأنا أحبها! «وبجهد هزيل أخير رفع يدي إلى شفتيه، ثم انخفض رأسه على صدره بهدوء.

الفصل الحادي والثلاثون
زواج جو، وبيدي

والآن بعد أن خلوت بنفسي، قررت التخلي عن المسكن الذي تشاركت فيه مع هربرت. فقد كنت تحت وطأة الدين، وقل المال في حوزتي، وصرت أعاني المرض الشديد. استلقيت على الأريكة ليوم أو اثنين مثقل الرأس والألم ينخر أطرافي.

وذات صباح حاولت القعود في سريري، فوجدت أنني لا أستطيع ذلك.

أصبت بالحمى وعانيت، فرحت أمضي الأيام وكأنني في حلم رهيب. بدا وكأن أحدهم كان بالقرب مني، وبدا لي دائماً أنه جو. وتمكنت في النهاية أن أسأل: «هل أنت جو؟».

فأجابني صوته الغالي المعهود: «وهو كذلك يا عزيزي بيب».

فقد مكثت إلى جانبي طيلة الوقت، إذ بلغه نبأ مرضي بموجب رسالة، فقالت له بيدي: «اذهب إليه على جناح السرعة».

ثم أخبرني أنه ينبغي مخاطبتي باعتدال، وأن عليّ تناول القليل من الطعام في أوقات محددة، وأن أتقيد بكافة تعليماته. فقبلت

يده واستلقيت بهدوء بينما شرع يكتب رسالة إلى بيدي، وهي على ما يبدو التي علمته الكتابة. في اليوم التالي، أخبرني أن الآنسة هافيشام قد توفيت، وأنها أورثت معظم ممتلكاتها إلى استيلا، وأربعة آلاف جنيه إلى السيد ماثيو بوكيت «بسبب شهادة بيب عنه».

أثار النبأ فرحاً عظيماً في نفسي لأنه توج العمل الصالح الوحيد الذي قمت به. وأخبرني كذلك أن أوريك العجوز اقتحم منزل بامبلتشوك فقبض عليه وأودعه في السجن.

بعد أن استعدت شيئاً من قوتي، أصبح جو أكثر تكلفاً معي، فأخذ يخاطبني «سيدي»، مما آلمني كثيراً. لكن ماذا يمكنني أن أقول؟ هل أظهرت له ما يحمل على الشك في إخلاصي، والاعتقاد بأنني في البحبوحة لابد سأغدو بارداً حياله وأطرده؟

ذات صباح نهضت نشيطاً وأكثر قوة، فذهبت إلى غرفته لكنه لم يكن هناك، وقد اختفى صندوقه. أسرعت إلى مائدة الإفطار، فوجدت عليها رسالة لم يرد فيها إلا ما يلي :

«لم أرغب في البقاء أكثر من اللازم فانصرفت لأنك استعدت صحتك ثانية يا عزيزي بيب، وبوسعك أن تتحسن من دوني. ملاحظة ستبقى أفضل الأصدقاء دائماً»

وكان بداخل الرسالة إيصال بديوني، وقد دفعها لي جو.

ماذا بقي لي الآن سوى أن أتبعه إلى دكانه القديم فأبدي له كم أصبحت متواضعاً ونادماً، وأن أذهب إلى بيدي وأخبرها كيف فقدت كل ما تمنيته فيما مضى، وأذكرها بأسرارنا الماضية أيام تعاستي الباكرة. ثم أقول لها: «أظن أنك أحببتني مرة أخرى يا بيدي. فإن منحتني نصف تلك المحبة ثانية، إن قبلت بي بجميع أخطائي وفشلي، حبذا لو أستحق أكثر مما كنت في الماضي»

استعدت قوتي كاملة في ثلاثة أيام، فاستقللت العربة إلى المدينة وتوجهت إلى الدكان فإذا به مغلقاً وساكن.

لكن المنزل لم يكن مهجوراً، فغرفة الجلوس الفضْلَى كانت قيد الاستعمال، وستائرها االبيضاء ترفرف على نافذتها الزاهية بالأزهار. سرت إليها بهدوء بقصد التطلع إلى الأزهار، حين وقف جو وبيدي أمامي، يداً بيد.

دمعت عيني حين رأيتها، ودمعت عينها حين رأتني. أما أنا فلأنها بدت في غاية النضارة واللطافة، وكانت دموعها لأنني في غاية الإنهاك والشحوب.

«كم أنت أنيقة يا عزيزتي بيدي»

«أجل يا عزيزي بيب».

«وأنت يا جو، كم تبدو وسيماً!»

«أجل يا عزيزي بيب، يا صاحبي القديم»

نظرت إليهما، من الواحد إلى الآخر، ثم صاحت بيدي بفرح: «إنه يوم زفافي. سأُزف إلى جو». أدخلاني إلى المطبخ، كانا في أشد الفرح والاعتزاز برؤيتي، وسرهما أنني أتيت صدفة لأتم المناسبة. فسررت لأنني لم أتفوه بكلمة عن أملي بالزواج من بيدي. هنأتهما بحرارة وشكرتهما على كل ما فعلاه من أجلي. أخبرتهما أنني سأسافر عما قريب، وبأنني لن أرتاح إلا حين أعيد المال الذي جنبني جو بواسطته دخول السجن، وقلت: «والآن، رغم معرفتي بأن ذلك صدر عنكما بقلب طيب، قولا لي معاً إنكما تصفحان عني».

قال جو: «أوه يا عزيزي بيب، يا صاحبي القديم. يعلم الله أنني صفحت عنك، إن كان هنالك ما يستوجب الصفح»

وقالت بيدي: «والله يعلم أنني فعلت».

الفصل الثاني والثلاثون
فراق الأصدقاء

بعت كل ما لدي وسددت ديوني المتوجبة علي، ثم سافرت لألتحق بهربرت في القاهرة.

مضت سنوات عدة قبل أن أصبح شريكاً في الملك، لكنني عشت بسعادة مع هربرت وزوجته كلارا. وكنت دائماً أراسل جو وبيدي.

كنت لم أرهما لإحدى عشرة سنة عندما ذهبت ذات مساء في شهر كانون الأول/ ديسمبر إلى منزلي القديم المجاور لدكان الحدادة. فوجدت جو جالساً هناك يدخن غليونه في مكانه المعهود بالقرب من موقد المطبخ، بكامل عافيته وقوته كما كان دائماً، رغم بعض الشيب. وهناك، كنت محصوراً في الزاوية بساق جو، أجلس على مقعدي الصغير أنظر إلى النار مرة أخرى.

فقال جو بفرح غامر حين جلست بالقرب من طفله: «لقد سميناه بيب إكراماً لك يا صديقي العزيز، ونأمل أن يصبح مثلك ولو قليلاً».

في المساء ذهبت لمشاهدة منزل الآنسة هافيشام القديم، من أجل

استيلا. فقد بلغني أنها تعيش حياة تعيسة جداً، وأنها انفصلت عن زوجها الذي كان يعاملها بغاية القسوة والدناءة، وبلغني أنه توفي.

لم يكن هناك الآن أي بيت أو مصنع للجعة، ولا أي بناء، بل جدار الحديقة القديمة. رأيت امرأة تسير نحوي، وحين اقتربت، صرخت: «استيلا!»

«تغيرت كثيراً، أستغرب كيف عرفتني»

لقد ولّت نضارة جمالها حقاً، لكن وقاره وجاذبيته التي تفوق الوصف لم يبارحانه.

جلسنا على مقعد قريب وقلت: «بعد تلك السنوات الطويلة، غريب أن نلتقي ثانية يا استيلا، هنا حيث كان أول لقاء لنا! هل تعودين إلى هنا؟»

قالت: «كلا». ثم أضافت بعد صمت: «إنني صاحبة الأرض، إنها ملكيتي الوحيدة التي لم أتخل عنها. ضاع مني كل ما عداها شيئاً فشيئاً، لكنني احتفظت بهذه».

«وهل سيتم البناء عليها؟س

«في النهاية سيتم ذلك، جئت أودعها قبل أن تتغير. هل ما زلت تعيش في الخارج؟»

«أجل».

«وتسير أمورك جيداً، كما أرجو؟»

«أجل، أعمل على ما يرام».

«فكرت بك دائماً».

«كنت دائماً في مكانك بقلبي».

«لم أفكر كثيراً بأنني سأودعك أثناء وداع هذه البقعة، إني سعيدة بذلك».

«هل أنت سعيدة لفراقنا ثانية يا استيلا؟ فالفراق بالنسبة لي شيء مؤلم. ولطالما كانت ذكرى فراقنا الأخير بالنسبة لي مثار حزن وألم».

«لكنك قلت لي: ليباركك الله، ليسامحك الله! فإن استطعت أن تقول لي ذلك آنذاك، فلن تترد أن تقول لي ذلك الآن، بعد أن علمتني المعاناة أن أفهم ما اعتاده قلبي. لقد خضت وتحطمت، إنما لأكون في حال أفضل كما أرجو. كن طيباً معي كما كنت، وقل لي أننا أصدقاء».

قلت وأنا أنهض منحنياً فوقها، فيما كانت تنهض عن المقعد: «إننا أصدقاء».

فقالت: «وسنبقى أصدقاء منفصلين».

أمسكت بيدها وخرجنا من المكان الخرب، وفي ضوء المساء الهادئ، لم أر أثراً لفراق آخر.

تمت...

الفهرس

DICKENS

آمال..تفوق التوقعات

GREAT EXPECTATIONS

هي رواية لتشارلز ديكنز نشرت لأول مرة مسلسلة بدأ من عام 1860م، ثم نشرت كاملة في 1861م.

تعد من أحسن أعمال ديكنز وواحدة من أكثر رواياته شعبية، وتم تجسيدها على المسرح والشاشة أكثر من 250 مرة.

تتبع الرواية نمط الرواية التكوينية، حيث يتتبع الكاتب قصة رجل أو امرأة في سعيها للنضج، عادة من مرحلة الطفولة وحتى تبلغ أشدها. تتحدث الآمال الكبرى عن قصة بيب، الطفل اليتيم، من طفولته المبكرة وحتى بلوغه ومحاولته لإدراك النبل أثناء مسيرته تلك.

تجري أحداثها من عشية عيد الميلاد عام 1812م، عندما كان بطل القصة في السابعة من عمره، وحتى شتاء 1840م. ويمكن اعتبار الرواية قصة شبه ذاتية للكاتب، على غرار الكثير من أعماله، يستقي فيها من خبرته في الحياة ومع الناس.



دار هماليل
للطباعة والنشر والتوزيع
HAMALEEL

هذا الكتاب بدعم من:
1001 عنوان
مبادرة 1001 عنوان

9 789948 235637